بنسالم حِمِّيش

جرحى الحياة

رواية

المركز الثقافي للكتاب
للنشر والتوزيع

بنسالم حميش: مفكر وأديب، وزير الثقافة الأسبق. حاصل على شهادات عليا من جامعتي الرباط وباريس. يكتب بالعربية والفرنسية في البحث والإبداع. ترجمت بعض رواياته إلى عدة لغات. اختار اتحاد الكتاب في مصر روايته مجنون الحكم ضمن أحسن الروايات المئة للقرن العشرين./ محاضر في عدة ملتقيات عربية وأوروبية وأمريكية./ عضو في عدة جمعيات ومؤسسات عربية وأوروبية./ رئيس سابق لصندوق دعم الانتاج السينمائي المغربي./ عضو سابق في المجلس الاستشاري لحقوق الإنسان. من الجوائز والتنويهات: جائزة الناقد للرواية (1990)/ جائزة الأطلس الكبير (2000)/ جائزة نجيب محفوظ (2002)/ جائزة الشارقة لليونسكو (2003)/ جائزة نجيب محفوظ لاتحاد كتاب مصر(2009)/ ميدالية تنويه من جمعية الأكاديمية الفرنسية للفنون والآداب والعلوم (باريس، 2009)/ الجائزة الكبرى لأكاديمية تولوز الفرنسية 2011/ سميت روايته «معذبتي» في القائمة القصيرة لجائزة البوكر.

جرحى الحياة

رواية

الكتاب : جرحى الحياة/ رواية
المؤلف : **بنسالم حِمِّيش**
الطبعة : الأولى 2018
عدد الصفحات : 256
القياس : 14,5 × 21,5
الإيداع القانوني : 2018MO2327
الترقيم الدولي : 978-9954-705-32-2

جميع الحقوق محفوظة

الناشر : **المركز الثقافي للكتاب**

الدار البيضاء / المغرب
6، زنقة التيكر
هاتف : 212522810406+
فاكس : 212522810407+
markazkitab@gmail.com

بيروت / لبنان
الحمراء ـ شارع المقدسي ـ بناء بلبيسي
هاتف : 9611747422+
فاكس : 9611744733+

بنسالم حِمِّيش

جرحى الحياة

رواية

الإهداء

إلى البتول

ألا ترى أن جسمك يستعبده النقرس والحمّى ورمد العين والزحار والطاغية والنار والحديد وكل ما هو أقوى منه؟

ابيكتات

كثرٌ هم الفلاسفة الذين نعجب بقياساتهم المنطقية، إلا أنهم في حياتهم يتناقضون.

ديوجين لايرس

كان وجودي شبيها بتمثال منقوص، ولما نحته الحب صرت إنسانا.

محمد إقبال

الحكمة تنكّر جراحنا: إنها تعلمنا كيف ننزف متسترين.

إميل شيورون

ـ 1 ـ

أمراض تذكِّر بأخرى وتحيل إلى أجسام جريحة تخلخلت وظائفها وتدهورت، أمضُّها وأقساها تلك التي تحلُّ كالقدر الماحق حتى قبل الشيخوخة وأرذل العمر. ومثال ذلك عندي أخي البكر علال الذي ما إن ناهز الخمسين حتى أصابته علات إما تناوبا أو متحالفة. وكان يحصيها هكذا مبديا ابتسامة مريرة: ضغط الدم، قرحة المعدة، ضعف النظر، السكري، ويأتي بهذه التعليقة: جسمي مسكن الأعطاب المتجاورة ولا حول لي ولا قوة... لم يكن شكاءً ولا مفرّطا في ما يمكن للطب أن يسعفه به، إلا أنه كان يبدو منطويا على سرٍّ داء آخر -لربما هو الأدهى- ينهشه ويقض مضجعه ويـجعله مدمنا على الخمر والعزلة. وتبين لي من بعض تلميحاته أن الداء ذاك هو عقمه النسلي، إذ لم ينجب ولو بعد مرور عقد على زواجه. وذات يوم، وهو في أوج السكر، فاتحني في الموضوع معترفا بمصابه دون امرأته كما أثبتت التحاليل، وأن كل محاولات التخصيب باءت بالفشل. كان أحيانا يهذي ويجدف بلسان كليل وخاطر كسير، ومما سمعته منه ذات مرة: لم يخلقني الربّ في أحسن

تقويم وخلاني أسفل سافلين، ولو أني لست ممن عصوه أو نسوه... والظاهر أن كلامي في تصبيره ورفع معنوياته لم يعد يجدي نفعا أو يحظى بإنصاته واهتمامه. وأذكر أنه ذات مرة نهاني عن ذلك معتبرا إياه لغوا في الرأفة والشفقة يمجه ويتأباه. ولا ريب أنه حين يخلو إلى نفسه يأتي بتجديف أوغل أعتى.

من باب تهوين الأمر عليه، أشرت إلى حل تبني طفل، كما هو معتمد في حالات كثيرة كحالته، غير أنه بادر إلى إنبائي بكون زوجته -التي كان قليل الظهور معها- ترفض ذلك الحل رفضا باتا، ولم ينفع مسعاي لثنيها عن موقفها، بل لقد عابت عليَّ الاهتمام بما لا يعنيني ويمت إلى حياتها الخاصة مع بعلها. لا أعرف عن هذه المرأة إلا القليل. تصغر علال سنا وتفعل جهدها لإبعاده عن أقاربه وعني بالتخصيص. نفوذها عليه بليغ، وأعلم هذا حق العلم، فلا بد لي أن أدخله في الحسبان، وإلا فترت علاقتي بأخي بل فسدت.

ودارت الأيام، وحالة الرجل الصحية والنفسية من سيء إلى أسوأ، وكم أذهلني يومَ أسرَّ إلي أنه يتفهم تعنيف رجال لزوجاتهم، فأنكرت عليه ذلك ونهيته عن التفكير فيه؛ كما أنه باح لي في يوم آخر أن تلك الزوجة أمست تعنّفه بأفدح النعوت المهينة من صنف: يا عديم الرجولة ويا عرّة الرجال يا أبتر، ولا تقيم له أي اعتبار. نصحته بطلاقها إن كان السكين وصل

العظم، قال ذلك ما سيقدم عليه إذا لم تصلح معها تحذيراته.

مغلوب على أمره هذا الأخ بين أمراض مستدامة لا تبرحه وامرأة عصية لا تلين أو ترحم ولا تعبأ بمساعي الحميدة من أجل المصالحة ورأب الصدع.

ليلةَ يومٍ نحسٍ تلقيت بالهاتف من ضابط في الشرطة دعوة للحضور العاجل إلى بيت علال عبد الحي. استجبت، فيا هول ما كشف لي وأعوانه من الوقاية المدنية والطبيب الشرعي: ثلاث جثث مضرجة بالدماء، واحدة لأخي والثانية لزوجته، كما أثبتُّ، والثالثة لغريب لا أعرفه. أتم الضابط أخذ شهادات بعض الجيران قبل صرفهم، ثم توجه إليّ بالكلام بعد أن أخذ مني معلومات تعنيني، قال:

- حسب تقديراتنا، أخوك وجد امرأته في حضن رجل على فراش الزوجية، فقتلهما ذبحا بعد أن انهال عليهما بشاقور ثم انتحر بطعنة في صدره... هل لك من شهادة تفيد المحضر؟

مغالبا هلعي وانفعالي أجبت، فيما الكاتب يسجل شهادتي:

- بالأمس فقط هتف لي أخي يخبرني أنه على وشك السفر إلى طنجة حيث لنا بعض الأقارب. لا شك أنه غيّر فكرته وأرجأها إلى يوم آخر. وحين عاد إلى مسكنه فاجأ عقيلته متلبسة بالخيانة الزوجية السافرة. وأرى أنه حتى لو لم يقتل

نفسه لكانت كل الظروف المخففة تميل لصالحه... رجل هادئ مسالم، يكره العنف. ولولا فظاعة ما اكتشفه لما كانت له قوة الإقدام على ما فعل.

- سؤال آخر... هل كان أخوك يسيء معاملة امرأته؟

- العكس هو الصحيح، سيدي الضابط؟ كان المرحوم يشكو لي شراستها والتمادي في ذمه وإهانته.

- وهل لك معرفة بالرجل القتيل؟

- أبدا ما رأيته ولو مرة.

ختم الضابط، وقد دنا من باب الخروج، فيما أنا أوقع على المحضر:

- لدينا عناوين أقارب القتيلين. اليوم نخبرهم بوجوب نقلهما من مطرح الموتى إلى المقبرة. أما أنت، السيد يقظان عبد الحي، فتعلم ما عليك لمواراة أخيك مثواه الأخير. وقد أجدد بك الاتصال عند الحاجة.

في الغد انتشر كالنار في الهشم نبأ المصيبة ضمن منوعات الصحافة، فما كان مني إلا أن أقمت في بيتي جنازة مرتجلة، حضرها بعض زملاء الراحل. لم يشر أحد منهم إلى حدث الانتحار باستثناء واحد عليه سمتُ فقيه صاح: لا تصح شرعا الصلاة على منتحر لا تصح... غير أنه أُخرج من الدار على

عجل. وتلا ذلك دفن جثمان أخي في مقبرة عمومية. ولم يمرَّ أسبوع حتى تم لقائي في بيته مع أب الزوجة، فأخذت أغراضه الخاصة للتصدق بها على خيرية، وتكفل الرجل بترحيل أثاث ابنته، ونحن لا نتبادل إلا كلمات الاستلطاف والاستغفار، ثم سلمنا الشقة إلى مالكها بعد تمكينه من مستحقاته.

فكرت مليا في حياة علال، لم أر سوى شقاوة تحكم انعقادها عقدةً عقدة. فشل في أمور كثيرة، وكلَّلَ ذلك بؤسُ زواجه وتخبطه في مشاكل شائكة متواترة لم تكِف مساعدتي في حلها أو التخفيف منها عليه. ملاذه الأوحد وجده في معاقرة الخمر ما إن ينته من عمله الذي لم يعد راتبه يكفيه لقضاء حاجياته وتسديد ديونه، فكان يستلف مني مبالغ مالية يعجز عن ردها. ولما شرطت عليه الانقطاع عن الشراب مقابل عوني، عاداني مدة طويلة وقطع الصلة بي. والراجح عندي أنه ارتكب مذبحته واغتال نفسه وهو في حالة سكر بليغة.

جراح أخي حتى الموت عهدت للزمان أمر إضعاف ذكراها رويدا رويدا وطمرها. أما ما كان في حياتي الجرح الأوغر والأنكى وما لا يندمل ويُشفى فهو وفاة زوجتي وبنتنا في حادثة سير مورعة، كلما عاودتني ذكراها -وكثيرا ما تعاودني- إلا وأصابتني الرعشة والقشعريرة. عقدت على نجاة وعقدت عليّ بعيد موت أخي علال، فكانت صنو ما نشدته

ورغبت فيه طوال سنواتي العجاف. كاملةَ الأوصاف هي في ناظري ومن وجهتي، نعمتي الخالصة هي ونعمائي. في عشرتها، كأني بأمهات الحسن والخير تولتني، فصرت أكتب أجود نصوصي، وبفكري ولغتي أركض كفرس تحرر من لجامه ومربضه. علمتني قرة عيني الاستمتاع بحدثِ الوجود واستحلاءَ الحاضر عبر صفوه ولحظاته، فكنا معا نقطف كل يوم من أيامنا هباتٍ ومسرات. مدين لها أنا بإعادة التوافق مع ذاتي وإحلال السكينة في نفسي واجتثاثِ قلقي.

ثم وقعت تلك الحادثة المشؤومة، فأردتني طريحَ الفراش، سجينَ البيت، لا الصبر نفع في تخفيف وطأتها عليّ ولا العزاء والسلوان. أسلمت مقاليدي لعبث الأقدار ومخبوءاتها. ولولا إسعافات خادمتي عفراء لكنت ترديت أسفل سافلين، ولكان الكرب الكبير علاني مهددا بخنقي وحتفي. ومكثتُ على تلك الحال شهورا ستة، حتى إذا خيرني طبيب بمنتهى الصرامة بين الموت والحياة، حاولت التحيز لهاته ما استطعت، متعنيا بجهد جهيد مشقة الخروج من نفقي إلى رحاب الهواء الطلق والضياء.

*

لكن، من حيث لا أحتسب، ألمَّ بي داء عجيب الطبع، شديد الوطء، تمخضت عنه تطورات وتفريعات وتقاطعات،

فأحدث لي رزءاً لا ينفعُ في تليينه الربيع إذا حلَّ ولا الصبحُ إذا تنفسَ ولا الرياحينُ إذا فاحت ولا الطقس إذا حلا...

أنا عشيرُ الكلمات، لم اعد ألوي على ما بها أصف حالي. وحالي شبيه بمن يقف على شفا جرفٍ هارٍ، فيصيبني منه دوار جرّاء عمقِ فراغي الجواني وجفافِ صحفي وأقلامي. وتبعا لذلك، أضحيت كلما نظرت إلى وجهي في المرآة إلا وقطعتُ الشك باليقين أني بلغت من الكمد حدا مكينا ومن الإكتئاب أقصاه. ما أرصده بالتجربة والمعاناة هو أني في المحصلة بتُّ تعباً من حمل أثقال لامادية أو قل نفسية، بل تعِباً من حمل أناي.

كل المنافذ أمامي موصدة، فالسياسة في موطني صارت مصطدما للأهواء واتجارا ومفسدة. أما الكتابة فأقول عنها ما قاله شاهد على انهيار الأندلس هو إبراهيم الآبلي: *"إنما الكتابة تخسير الورق"*، أي عبثٌ وتزجية للوقت عقيمة. حيال هذين المنفذين المحتقَنين، لم أر حلا لحالي، وإن مؤقتا، إلا في التلهي بتوزيع وعيي وما تبقى من طاقتي ممارِسا السباحة وراعيا بدني داخل نادٍ رياضي، كما بمزاولة قراءة ما تيسر من صحف الأولين وأساطيرهم وأحاجي الناس والحمقى، هذا علاوة على مهمة نقيب العمارة حيث مأواي، ألحَّ عليَّ سَاكنوها من الرجال في قبولها. ومنذ أول اجتماعٍ بهؤلاء،

نبهوني إلى أن قاطنة الشقة رقم 2 تمتنع عن أداء مستحقات الحراسة والنظافة وصيانة المصعد.

استخبرت الحارس عن تلك الجارة، قال إن كل ما يعرفه عنها أنها تعيش مع زوجها المريض، وأنْ ليس لها أطفال ولا يزورها إلا القليل من أهلها. اصطحبته معي يوما، طرقت بابها طرقا خفيفا، ففتحته خادمة وخلفها امرأة ممشوقة القد، لها من الحسن نصيب. حييتها وذكرت لها سبب مثولي أمامها، أجابتني أن وضعها المادي لا يسمح لها بأداء أيِّ شيء، سيما وأنها لا تستعمل المصعد قط.

إحساس مّا جعلني أؤول قسمات المرأة الحزينة وخفوتَ صوتها على أنها قد تكون من المكلومات وجرحى الحياة. ومن ثم دفعتُ مبلغ الواجبات بزعم أن الزوج هو من يسدده. وذات يوم جاءتني خادمة الجارة بظرف يحوي المبلغ، فأبيت تسلمه، واضطررت لتأكيد موقفي إلى طلبها، فاستقبلتني في صالونها مرحبة. وبعد أن قدمت لي الشاي وتبادلنا كلمات تعارف وجيزة، دعوتها إلى اعتبار أداء المستحقات أمرا منتهيا، شكرتني بحرارة ووصفتني بكوني جارا رحمة، ثم نعتت لي بابا موصدا قالت إن خلفه يرقد زوجها المصاب بالألزايمر. أبديت لها أسفي واستعدادي لمساعدتها متى شاءت. عبرت عن امتنانها وأكدت لي أن حالة المريض استفحلت منذ أكثر من

سنة، بحيث لم يعد يتعرف على أحد سواها، وأن الجيران لا يعلمون من حقيقة أمره شيئا، وتتمنى ألا يعلموا. سلمتها رقم هاتفي مودعا وقصدت باب الخروج حذرا. وهنا صادفت رجلا وافدا قدمته لي بصفته ابن خالتها وأخاها من الرضاعة.

في مستقري تهالكتُ على الكانبي مفكرا في حالة رجل فاقدِ الذاكرة، وقستها بحالتي التي قد لا تكون في حقيقة الأمر سوى توهمات وأضغاثِ مخاوف وهواجس. وجراء هذا القياس شعرت بعودة بعضِ الخفة إليَّ والطمأنينة.

في زيارة ثانية للمرأة، صاحبتني محتاطة إلى بيت بعلها. انحنت على أذنه وبثت فيها كلاما وجيزا، علمتُ منها خفتا أنه كان لتقديمي بصفتي مساعد طبيبه الخاص. أخذ طريحُ الفراش يرنو إليَّ بعينين جاحظتين تارة ومستنيمتين طورا، وبين الفينة والأخرى ينعت سلة أدويته الجمّةِ المتنوعة. ولقد أحسست بالألم والأسى وأنا أمام رجل محنط كالمومياء، لا يربطه بالحياة إلا فراغ هائل يعج بالغياب واللامعنى، وبأشياء لا أسماء لها ولا مغزى.

قبيل انصرافي قبّلتُ رأس المريض شادا على يديه، ثم قريبا من باب الإياب أجهشت مريم بالبكاء -هذا اسمها-، ولولا أني عصيٌّ الدمع لكنت فعلت مثلها. مسحتُ عبراتها بمنديلي ثم أوصيتها بالصبر الجميل على المحنة والمصاب

المقدور. سألتها إن كان زوجها يغادر داره إلى الخارج، أجابت أن ذلك يحدث مرة أو مرتين في الشهر، إذ تأخذه في سيارتها للتجول في المدينة، حتى إذا بلغا بعض الرحاب والحدائق رافقته مشيا لمدد قصيرة.

مضى على زيارتي تلك زهاء أسبوع، وفي مدخل التالي هتفت لي الجارة، فكانت في كلامها طليقة اللسان رقيقته، من عناوينه أنها تثني كثيرا على إنسانيتي الكريمة وأخلاقي الرفيعة. وبعده أسرت إليّ أنها مذ تشرفت بالتعرف عليّ شعرت بالعطف والدفء في جواري؛ ثم عرجت على بعلها قائلة إنه كان دوما مكمنَ العلل القاسيات حتى قبل إصابته بالألزايمر، وقد نسيها جملةً الآن أو توارت خلف مصابه الداهم، لكنها هي لم تنسها: وجع المفاصل، ضغط الدم، الأرق. عللٌ ظلت هي تدبرها ما استطاعت بالأقراص المنومة والمهدئات الكيماوية وسواها. وللتو قفز إلى ذهني أن هذه العلل هي التي بتُّ أشكو منها دفعة واحدة حينا أو تناوبا أحيانا، وذلك بعيد وفاة زوجتي وبنتي منذ ما يقرب من سنة. فيا للمصادفة الممضة! حاولت صرف البال عنها وتجاوزها، تجنبا لما قد توحي لي به من تطيُّرٍ، سيما وأني أعالج اليوم أمراضي كما يجب.

نعم، أعالجها بفضل طبيبة داخلية، تتقن، بورك فيها،

الطبين العام والخاص، وتحسن التشخيص والمداواة. أما حالتي المعنوية فسِيمتها التأرجح بين السوء ولا بأس بحسب الظروف والفصول.

عبر الهاتف، تقدمتُ في التعرف على مريم: تزوجت مرتين ولم تلد، أستاذة اللغة الفرنسية سابقا في إحدى ثانويات الرباط، حصلت على تقاعدها النسبي كيما تتفرغ لإسعاف المريض ولشؤون بيتها. ملاذها للتخفيف عنها وجدته في السماع الصوفي والموسيقى الكلاسيكية الغربية... أما زوجها الحاج أحمد ياسين فقالت إنه تقلب في وظائف مهمة، حيث عُرف باستقامته وتقواه، ولم يجنِ من مشواره الطويل إلا شقة سكنه وتعويضات التقاعد.

اقترحت عليها في يوم كان مزاجي سويا أن أصحب معي زوجها في جولة صباحية. ترددت لحظة ثم قبلت ملحة في إيصائي بأن أظل ملازما له وإلا فرَّ تائها، كما فعل مرارا في صحبة الخادمة. أركبته سيارتي ووضعت في صندوقها كرسيه الجرار. ارتدتُ معه حديقة شارع النصر ثم باحة أطلال مسجد حسان وبعض المقاهي. وحيثما حللنا كنت أبدي له علامة الرضى والطمأنة، وأدفع كرسيه بكثير من اللين والكياسة، فيما هو واجم لا يبدي إلا إيماءات وحركات أؤولها تأويلا حسنا، ولو أن جماع مرارات يرتسم على قسمات وجهه الشاحب

ويتجمد في نظراته المنفلتةِ الفارغة. هذا وإن صوتا إبليسيا أمسى يوسوس لي بكثير من الخبث باثا في أذني: "وما أدراك تصير يوما كهذا الرجل المحطم!". وحين توالت عليّ الوساوس قفلت راجعا لأعيد الصاحب إلى مسكنه سالما آمنا. وتكررت مبادرتي مرة كل أسبوع، وحرمُه تقابل فعلي بالشكر والامتنان. وفي كل مرة يعاودني استغرابي من أني أرافق إنسانا يجهلني تمام الجهل، يرمقني ولا يتذكرني، وأنا لا أعلم مثقال ذرة مما يدور بخلده ويسري في عالمه الباطني. انعدام التواصل معه بالغ منتهاه، ولا دعاء لي إلا أن تقيني الأقدار من أن أصير يوما مثل هذا المعوَّقِ المغلوب على أمره.

وفي إحدى تلك الجولات، قابلت الحاج ياسين وجها لوجه. فعلت جهدي لقراءة أسارير محياه ولعثمات لسانه. فتارة أحكي له نكتا وطرائف، فلا أنتزع منه أيَّ ضحكة أو ابتسامة، وتارة أنقل إليه بعض أخبار جرائدي لعلي أستثير تجاوبه وتعليقه، منها مثلا: "تقرير دولي يصف الديمقراطية في العالم العربي بالهجينة... الدار البيضاء مهددة باجتياح مئات المرضى النفسيين... الحشرات الضارة والفئران تؤرق سكانا بمكناس... العواصف الثلجية تقطع الطرق والمعابر وتحاصر السكان بجبال الأطلس"، وسوى ذلك. غير أن جليسي لم يكن يعير لتلك الأخبار أيَّ اهتمام أو ينبس ببنت شفة. كل همه إنما هو في

التلويح بعصاه لطرد المتسولين والباعة المشوشين.

وفي جلسة تالية بسطح فندق گولدن فرح، لا هرج فيه، أنشأت أحدثه في تاريخ دولة الموحدين ومعْلمتهم صومعة حسان وأطلال مسجدها المنهار بسبب زلزال، وعن ضريح الملكين محمد الخامس والحسن الثاني، كما أحدثه عن مدينة سلا التي يفصلها عن الرباط نهر أبي رقراق المتدفقة مياهُهُ في البحر الأطلسي... لكني لم أكن في كلامي مع جليسي إلا كمن يصبّ الماء في الرمل أو يصيح في وادٍ مقفر. فلا كلمة منه أو إشارة تدل على أنه يسمعني ويوجد معي على خط التواصل والفهم. غير أن هذا الواقع لم يحبط عزيمتي ويمنعني من الأمل في تكليمه وحثه على محاورتي ولو في شيء واحد مما أسوقه وأذهب إليه.

في جلسة أخرى بالمكان نفسه خاطبته كما لو أنه إنسان عادي مثلي، يتذكر وينطق ويتفاعل. وما شجعني هو أنه أمسى يتلفظ آليا بكلمتي "صحّ" و"حقّ". قلت:

«أعرف عنك أشياء، يا سيد ياسين، وأنت عني لا تعرف أي شيء. وهذا ما أريد الآن التشرف بذكر بعضه في حضرتك: إسمي يقظان عبد الحي، موظف سابق في مصلحة الموارد البشرية، حصلت من سلك التعليم على المغادرة الطوعية، وأنا اليوم خمسوني ذو وضع مادي لا بأس به... أمارس الكتابة

الأدبية ما استطعت، فمرة تكون طيِّعة ميسورة، تأتي من مخض الإلهام وفيضه، وفي مرات تتعسر والعياذ بالله. وأنا معها اليوم في هذي الحالة الثانية... أزعجك بهذا الكلام؟ إنه من وساوسي. إنسَ كلامي أرجوك، إنسَ... لا شك تعرف أغنية الموسيقار محمد عبد الوهاب: انسَ الدنيا وريّح بالك/ وإيوعَ تفكر في اللي جرى لك؟».

همهم مخاطبي: صح... فتابعت متحمسا:

«قد تسألني عن نفسي وحالها في أيامنا هاته، فأجيب: مع نفسي، والحق أقول، لست على أحسن ما يرام. يعوزني النمو المنعش والدينامية المستدامة. وإني أُلقي باللائمة عليّ وأغوص في نقد ذاتي، لعلي أتقوى فأتخلص من قلقي المزمن، وأتنفس الصعداء والهواء الطلق، بعيدا عن هُوَّتي الباطنية وظلامي الزاحف.

«وقد تستفسرني أيضا: وكيف تظل واقفا أمام الحياة، فلا تسقط ولا تكبو، ولا تعاقر الخمر ولا تتعاطى المخدرات؟ وعندها آتيك بهذا الجواب: أحاول هزم خدعي وخيبات أملي والانصهارَ في ما يقوِّمني، مستلهما شاهدة في قبر من عهد هنود الأنكى عليها: "*كنتُ ما أنت، وستصير ما أنا الآنَ عليه*". أما إذا عجزت وبلغ التدهور مني منتهاه، فإني أكد في البحث عن مخرج مشرِّف من فوق، رجاةَ إنقاذ روحي التي، لحسن

حظي، تبدو لي كشعلة سيئة الإنطفاء، وبالتالي قادرة على الإنبعاث واللمعان».

أردت أستيقن من وجود مصاحبي معي على متن الإدراك والفهم، ومن كونه ماسكا بعقال كلامي ومداره، فسألته بما يفيد ذلك، وإذ كرر على مسمعي "صح" و"حق"، قطعت الشك باليقين من أني إنما أنا في مجالسته أخاطب نفسي، ولا أحيد عن طوقها قيد أنملة. ورغم ما تأكدت منه استمررت في الحديث إلى الرجل حتى لا يخيم على مقابلتنا صمت موشّى بابتساماته المريرة، أشبه ما يكون بصمت القبور، باعثٍ على الضجرِ والحرج. قلت بصوت متأرجح بين العلو والخفوت:

«ميؤوس إذن من شفائك، لكن لا تيأس من رحمة الله. فقد يمنّ عليك بمعجزة عزّ نظيرها، فتبرأ وتستفيق على غير ما أنتَ فيه، أي مستعيدا ذاكرتك النافعة، وإن لزمتك فترة الترويض لجبر أضرار النسيان ورأب صدوعه، بعد أن غمرتك لججه وعطّلت دماغَك سِنانه... لكنْ، إذ لا معجزة فعزاؤك وسلوانك في زوجتك الساهرة عليك، كما في أنك نفس و﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾. تعددت الأسباب وتنوعت والموت واحد. اختارت لك الأقدار ما أنت به اليوم مصاب، وكان من الممكن أن تسلط عليك سببا آخر أفدح وأوجع... قد أقول في تأبينك ذات يوم كلمات صادقة للتنويه بخصالك الحميدة

والثناء على صبرك الجميل في ما ألمّ بك وما عانيت منه وكابدت؛ كلمات يشفع لوجازتها وتقصيرها كونها صادرة عن شغاف القلب وعمق الوجدان، وعن صدق المشاعر الممزوجة بالحزن والأسى. وقد أختمها بشيء من الأدعية المناسبة للمقام، مذكرا بالآية الكريمة: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾. فاللهمَّ أرزق أسرة المرحوم الصبر والسلوان، وآتيهم بما يغالب حرقة الفراق ويهوِّنها؛ اللهمَّ امدد أرملة الفقيد الحاجة مريم بما يقويها ويشدُّ أزرها في هذا المصاب الجلل. اللهمَّ أمطر على روح حبيبنا الطاهرة شآبيب رحمتك، وأسكنه فسيح جناتك، وكن له عفوّا غفورا، آمين وإنا لله وإنا إليه راجعون».

لم يعد الرجل ينبس بلفظتي "صح" و"حق". انقطع التيار بيننا تماما، فآثرت إرجاعه إلى مستقره آمنا، من قبل أن يحدث ما ليس في الحسبان. هذا وإن رغبة غريبة اعترتني قبيل الانصراف، فحْواها أن أمخض رأس صاحبي مخضا شديدا، آمرا إياه بفك الارتباط بين ذاكرته والنسيان وتبويئها صدارة الوعي والحادثات. وسرعان ما استهجنت رغبتي ومُرادَها، علما أن هذا العليل لا تنفع فيه الأوامر الزجرية ولا حتى الصدمات الكهربائية.

وذات يوم مثلتُ أمام السيدة مريم لأداء ما ندبت له

نفسي، إلا أن رجلها أخذ فجأةً يصرخ صراخا مبرحا ويشير في اتجاهي بما يفيد أمري بالزهق. سارعت إلى الانسحاب، تاركا الزوجة في حالة من الحرجِ والهلع. ولحسن حظي أن لا أحد من الجيران بدا أو سمع، فحمدت السلامة من ورطة لا أدري تبعاتها لو أنها حصلت.

هرعت إلى الخارج حيث همت على وجهي في شوارع المدينة العامرة بالمباني والخلائق والسيارات. تغديت في مطعم ولا تفكير لي إلا في ما عشته مع مريم وبعلها. خطر لي أن أحدث صديقا في الأمر، لكن سرعان ما أحجمت، مفضلا تناسيه في زيارة مقبرة لعلو حيث ترحمت على روحيْ زوجتي وبنتي، ثم في مقهى حدائق لوداية المطل على نهر أبي رقراق والبحر الأطلسي. وهنا شعرت، وأنا أمعن النظر في تلاطم الأمواج وفوضاها، أني سلوت. حينئذ فتحت هاتفي فطالعتني رسالة من جارتي تأسف فيها لما جرى وتعتذر. أجبتها فورا أن لا تهتم ولا تكترث، وكلي عزم على أخذ بعد عن منزل يأوي فرص الورطات والمخاطر. وحتى ساكنته لم تعد تسأل عني، شعورا منها ولا شك بدقة الموقف، واتقاءً للمزالق السيئة ولعيون الجيران؛ هذا وإني ظللت باسم زوجها أؤدي مستحقات العمارة، كما تعهدت. وما سأظل أذكره في اجتماعاتي بأصحاب الدور في هذه العمارة، وذلك بصفتي نقيبها، هو ما كانوا يتداولونه من

نقاشات في منزل أكبرهم سنا الحاج التازي، تصبُّ إجمالا في موضوعات رياضة كرة القدم والانحرافات الاجتماعية ونزوع السياسة إلى الشعبوية وضعف المعرفة وسوء الأداء، هذا علاوة على قلة الأدب والدين عند الجيل الجديد. وفي خضم الكلام يبشر واحد أن مشكلته مع مكترية الدار كذا حُلت، ويخبر آخر أن الأرملة التي كانت تقطن فوقه وتزعجه بمشيها الضاج قد رحلت والحمد لله، وينبئ ثالث أن المكتري الأعزب قبالته قد كف عن إدخال العاهرات إلى منزله، بعد أن هدده مرتين باستقدام البوليس... كما لن أنسى آخر اجتماع حضرته استبقاني في متمه ذلك الحاج حيث حثني على تقديم استقالتي من مهمتي نظرا للكلام الكثير الذي يروج حول زياراتي المتكررة لصاحبة الدار رقم 2 بدعوى مساعدة زوجها. أجبته أن بعض الظن إثم وسلمته رسالة استقالتي التي كانت دوما في جيبي.

تلك صفحة عليَّ إذن بطيها لفتح أخرى أداري فيها نفسي وأخلصها من متاعبها وخدوشها ما قدرت.

*

يوم كانت نجاة، شريكة عمري، حيةً ظللتُ أسايرُ الحياة وأبقى على قيدها لأسبابٍ من أهمها: كيلا أسقط من عين محبوبتي، ولا أضربَ بعرض الحائط كبريائي، ولا أنجرفَ في تيارات اللغوِ والجذب إلى الأسفل. وأذكر أنها قبل زواجنا

كانت أحيانا لا تفهم أشياء وقتَ وقوعها، حتى حينما أُعلن لها حبّي، أو في وجهتها أنشدُ ملءَ حنجرتي وصدري أغنية البيتلز *"أونلي يو"*. أما ردة فعلها فتحصل ببطء، وبنتائج لا تخلو من غرابة. وليس ذلك بسبب بلادة مّا، حاشا، بل من شدة الروية والرزانة. وحيال حيرتي أحيانا وتعجبي، كانت تتحداني قائلة: حُلَّ شفرتي إذا أنتَ محبّ... وهذا ما استطعتهُ بعد لأيٍ، فعقدتُ عليها وعقدت عليّ.

الإرادة تحرِّر... لذا، وحقِّ الحق، لن أترك الحياة اليوم تنسحب مني، ولن أنشر همومي وقلاقلي الجوانية بالقلم أو في الرحابِ العمومية. فلقد جبلتُ على كره القماءة والصِّغار، وأنا مع المثل السائر: "سركَ أسيرك فإن أفشيتَه صرتَ أسيره". هذا مع أني كلما حاولت تلبية واجب الاستغوار والتعمق إلا وواجهتني كتلُ التسطيح واللامعرفة، مستنفرةً مستفزة، فتُلجئني إلى إنقاذِ جهدي ومحصولي، ساعيا إلى الاحتماء بسادة الأقوال الشائقةِ الرائقة والأفعال النّيرة البديعة.

*

بعد عودتي من سفرة إلى صحراء وطني شملت ورزازات والداخلة وطانطان والعيون، حيث يحلو لي المقام أسبوعا للتفكر والتأمل، علمت من حارس العمارة أن السيدة مريم وبعلها غادرا منزلهما إلى وجهة لا يعلمها. على التو لم يخطر

لي أن أقتفي أثرها بحثا عنها، بل شعرت براحة عجيبة من حمل عبءِ مغامرة قُيّض لي إذن أن لا أتابعها. كذا المصائر، بعضها يلتقي ويتقاطع فيتناسل، وبعضها يتجاور أو يتلامس ثم ينصرم ويتهاوى! فسلامٌ على مريمَ إلى يومِ الدين، وكان الله في عونها لتقلد شأنها الثقيل؛ وسلامٌ عليَّ إذا أنا تخطيت العقبات وتزودت بما يُقوي ويُعلي. وهكذا ارتأيت أن أغير أنا أيضًا منزلي، فاشتريت ڤيلا وسيعة جنوب الرباط، ميزتها أنها مطلة على البحر الأطلسي من جهة وعلى غابة تمارة من جهة أخرى.

ودارت الأيام متأرجحة بين الإيجاب والسلب، تارة حلوةً مريئة وطورا مُرةً عسيرة. وبعد أن بلغتُ من الاتزان معدله ومن العيش مستطابه، حدث أن وجدت على شاشتي رسالة من مريم تنبئني فيها بموت زوجها وبرقم هاتفها الجديد. على الفور هاتفتها لتعزيتها متمنيا لها الصبر والسلوان وللراحل نعيم الجنة والرضوان. استأذنتها في زيارتها من أجل الاطمئنان عليها، فاستمهلتني ريثما تنهي مدة حدادها، وعينت لي موعدا يناسبها. ولما حل تاريخه بادرتُ إلى لقياها مدفوعا بشوق غريب، فتبدت لي على أحسن خلقة وأبهى صورة. جددتُ لها تعازيَ فشكرتني ودعتني إلى صالونها. وهنا قضينا لحظات صامتين حتى تنهي الخادمة إعداد المائدة بالمأكل والمشرب. وبعدها بادءتني جليستي بسرد تفاصيل أليمةٍ مضنية عن المتوفى

أوجعتها وسوّدت الدنيا في عينيها، وعللت بهذا تغيير محل سكناها. أبديت لها تعاطفي وحاولت ما أمكنني التخفيف عنها، فحكيت لها حالات مآسٍ أخرى أقسى وأعتى. دعتني مجددا إلى الإقتيات فلبيت، ثم سألتها بشيء من التحفظ والحذر عما هي اليوم فاعلة في وضعها الحالي. قالت ومسك الصدق يتضوع من فمها:

- يا سيدي يقظان، لا تقلق من جهتي. بمال بيع الدار في العمارة اللي كنا نسكنها اشتريت هذا المنزل الجديد. أنا متقاعدة ووضعي المادي لا بأس به الآن... أيام كان المرحوم على قيد الحياة، معظم دخلنا كانت تستهلكه المتابعة الطبية والأدوية. ولك عليّ دين يمكنني الآن أداؤه...

قاطعتها متلطفا وقلت:

- ذلك شيء يسير نسيته وأرجو ألا تعيدي الكلام فيه.

- بل أقسم بالله تأخذه مني كاملا يا كريم...

وبعد أن مدت لي ظرفا ومكنتها من عنوان سكني الجديد رأيت من اللائق أن أنصرف قبل حلول الليل، سيما وأن وافدين أخذوا يتقاطرون على المنزل، منهم الرجل الذي قدمته لي من قبل بصفته ابن خالتها، فاستقمت متوجها إلى الباب، فيما هي توصيني أن لا أبخل عليها بزيارات أخرى.

يا للمفارقة! دخلت على السيدة معزيا، وخرجت من مقامها يستخفني فرحٌ عجيب. فرح لن أسرَّ بسببه إلى أحد... بقية ليلتي انتويت قضاءها في بيت صديق عزيز، عمر الماجد، أرمل مثلي ومن رعيلي، مضربٌ تماما عن الزواج مجددا و زيْرُ النساء كما يُسمى. يشير عليّ أحيانا بإحداهن، ويقول: استعمل الواقي أولا ثم لك الجسم بما اتسع، فاستهلك وتمتع، هذي نصيحة الشعراء والغاوين... ويردف صائحا: التلذذ! وهل تحلو الحياة من دون التلذذ! وكان حين يبلغ السكر منه أوجه يظل ماسكا بعقال عقله واتزانه، يشرع في سرد حكاياه مع النسوة، يقسمهن إلى سيئات جاحدات، معهن يكون كالثعلب يراوغ ويعمل الحيل للإفلات، وإلى طيبات طيعات يساعد بعضهن على إيجاد عمل شريف في السينما والتلفزيون أو على الهجرة وأحيانا على أداء فريضة الحج لطلب الصفح والغفران. وفي عشرتهن ائتمر له كل شيء: حسنه وماله وقدرته الخارقة على الغواية والاستهواء. ولو كان متيقنا من أن في جزيرة الوقواق شجرا يثمر نساءً لكان شدّ الرحال إليها. المرأة عنده ذات نتوءات شهية ما دامت في عمر البروز واللياقة الجنسية، وقال لي يوما متنهدا: ما أقسى على القلب أن ترى بالعين المجردة امرأة تشيخ وتترهل، أو لا يتبقى من حسنها السالف سوى شيء من حروفه. فرفقا بها ما استطعت وإما انسحب على الطريقة الإنجليزية... وكان شعاره في بعض الحالات: والله لا

أنصرف أو أعرف قصتها... وفي سياقهن حكى لي يوما قصة واحدةٍ فاجأت بعلها ذا المال والنياشين مع رجل عاريين على فراش الزوجية، فأخذت له صورا خاطفة وفرت، ثم صارت تساومه بها، إما أن يخضع ويطيع وإما أن تنشر وتفضح... وأضاف جليسي: وهذه أخرى متزوجة ظل عشيقها يساومها بفيلم حول علاقتهما الحميمية ويبتزها مقابل سكوته، فلم تسلم إلا بعد أن مات في حادثة سير... والعجيب أن الماجد كان يزعم أن له من مثيلات تلك القصص بالعشرات بل أكثر. وكان يبوح لي قائلا: قلمي للأسف لا يحسن الكتابة إلا بالأبيض، ويوم تريدها مادة لقلمك أتبرع بها عليك بالمجان، يابختك! سألته مرة إن كان من المتحرشين بالجنس اللطيف، فأنكر بشدة واستعاذ بالله، وقال إن ذلك من عمل الشيطان والمكبوتين، إذ لا تصح عنده العلاقة بين الذكر والأنثى إلا إذا قامت على المطابقة التامة والموافقة الصريحة، وإلا فلا وألف لا... ثم قال مستنكرا: لمَ نسكت عن المتحرشات؟ تخطئ إن اعتقدت أن هذا الصنف غير موجود، صدقني أنا المجرب، ولا أعني هنا العاهرات، ثم هل تعلم أن من الصحراويات الحرائر عندنا من يتغزلن في الرجال بكلام شعريّ واضح يسمينه "التبراع"؟... اعترفت بقلة معرفتي به، فوعدني باستقدام واحدة تعشقه لتبرِّعني بما يعجبني.

*

زياراتي الثلاث لمريم في بيتها الجديد تخللتها دعواتي لها إلى مطاعم محترمة. لحظات صرفناها فيها أغنت تعارفنا، ولو أنه ظل دون ما أبتغيه. و لا أخفي ما خامرني من أفكار تلمع حينا وتخبو حينا حول جواز أن تصير لي زوجة من أسميها إلى حد الآن خليلة. لكني ملت في هذا إلى التريث والروية. فالقران في سن كهولتنا يجمل أن يتقوّم بالرشد والحكمة، لا بالعجلة التي قد يكون من تبعاتها الندم والفرقة. والحق أني في ذات الشأن لم ألحظ من طرفها إشارة أو تلميحا. وبالتالي فلكأننا تواطأنا على تسليم الأمر إلى مشيئة الزمان والمقادير.

وذات يوم، في بيتي الجديد، عرضت عليَّ الرفيقة مجلة فرنسية تحوي مقالا عن "لوطانازي" أو ما نسميه الموت الرحيم، طالبةً مني رأيي في الموضوع، فارتجلتُ كلاما يفيد أنه جدُّ دقيق وشائك، يرجع البث فيه إلى الأطباء وأسرة الميؤوس من شفائه، ولو أن للقانون حكمه فيه. سحبت جليستي المجلة من بين يديّ وغيرت وجهة المحادثة إلى محن الشرق الأوسط عامة وسوريا خاصة، ثم عرجنا على أوضاعنا الوطنية حيث كان لنا توافق في الرصد والنقد...

ظنا مني أن مريم لسبب مّا -لعله الفضول البريء- تريد التعرف أكثر على مسألة الموت الرحيم، هيأتُ لها فيه ملفا يحوي مقالات وتقارير، إلا أنها في لقاء آخر جمعني بها

رفضت بشدة تسلمه بدعوى أن ما تعلمه كافٍ وأن رأيها حوله مطابق لرأيي. ومن ثم ألغيناه تماما من محادثاتنا.

كيف أخفي أن قلبي أمسى علقا بمريم، وأن بفضل هذا الشعور عاودتني خفةٌ وحيوية، وامحى ما اعتورني غالبا من استثقال الوجود والتعبِ من رتابة حمل أناي! وقد قوى هذا الشعور وزكاه عطفي عليها وإعجابي بصمودها أمام ما تحكيه لي عن معاناتها المريرة أيام عشرتها الطويلة مع المرحوم زوجها، سيما بعد أن تلاشت ذاكرته تماما واستفحل وضعه وسلوكه، إذ أمسى كالرضيع يُطعَم ويُكسى ويُطهر. وحدث له وقتذاك أن هرب مرتين من البيت مرتديا منامته. وفي مخفر الشرطة تعرف عليه ملازم فأعاده إلى مستقره، وذات مرة أخرى صدمته حافلة كادت تقتله، ونقلته سيارة إسعاف إلى المشفى... سنة إضافية أمضتها السيدة الشجاعة وهو على تلك الحال، يكاد المريض أحيانا لا يذكر اسمها، وتعتريه بين فينة وأخرى نوبات حادة، فيكسر المرايا حيث وُجدت، أو ينفجر بالصراخ لإبعاد زوار عن رؤيته أو من دون أي سبب بيِّن، اللهم إلا أن يكون سخطه العارم على وضعه المزري وعلى استماتة الحياة في التعلق به مع تعنيفه وإهانته. وأسرت إليَّ الراوية أنه كان في بعض صحواته النادرة يتلفظ بكلمات مرفقة بإشارات تفيد جميعها أن أعز ما يطلبه من الله هو أن يمنَّ عليه

بموت عاجل. وأسمعتني من آلة تسجيل تضرعاته واستغاثاته. وما إن أقفلتها حتى أجهشت بالبكاء على كتفي، فجددتُ لها عبارات التعاطف والمواساة. وعلى عتبة التوديع أنبأتني أنها مع أمها ستقصد قريبا الديار المقدسة لقضاء مناسك العمرة، لعلها تخف وترتاح.

ـ 2 ـ

دعوت صديقي عمر الماجد إلى عشاء في بيتي. شاورته، بعد أن فرغنا، في ميلي إلى إعلان حبي لمريم من دون أن أسرد عليه قصة حياتها، فما كان منه إلا أن تمضمض بنبيذه ثم أطلق ضحكة ضاجة أتبعها باعتذار، وبعدها ذكرني أنه غير مؤهل لنصحي لكونه لم يعد يؤمن بالحب ولا بالزواج، والرومانسية عنده شغل مراهقين ومغفلين، وسيرته في الموضوع مستمدة من فن حرب العصابات: مكرٍّ مفرٍّ، اضربْ واهربْ... سألني إن كنت ضاجعت محبوبتي، وإذ نفيت أطلق العنان لضحكة أخرى صاخبة ختمها باعتذار ثم بدعوتي إلى الكلام في أشياء أخرى كالتي لها مساس بالطبيعة واقتناص المسرات والملذات.

للصديق نهج حياتي يشد عليه بالنواجذ، نهج أبيقوري أو قل نوّاسي، يمكّنه من اتزانٍ ونمط عيشٍ ملؤه الفرح والمرح. ما أعلمه عنه أنه موظف مهم بوزارة الفلاحة ومطلّق مرتين من دون أن يخلِّف، وكل صحابه المقربين يكْنونه الماجن عوض اسمه الماجد، يطَّرح الحشمة ولا يتورع عن الكلام الفاسق وحكيِ النكت الخليعة. وما يجذبني إليه هو أنه نقيضي،

جذلان دوما، لا يكفهر ولا يستشكل الحياة وشؤونها. سألته يوما عن سر سلوكه هذا، أجاب أن الماضي عنده في خبر كان، والمستقبل في علم الغيب، والحاضر هو ما يتبقى له كمساحة مرئية محسوسة بلحظاتها ووهجها... شعاره الأولى ما قال به عمر الخيام: «*واغنمْ من الحاضرِ لذاتهِ / فليسَ في طبعِ الليالي الأمان*». وحين أشير إلى محدودية مذهبه وبعده عن قدرة اتخاذ العبرة والحيطة والتوقي، يجيبني بكل هدوء والكأس في يده: الحياة مسالك ومعابر، وأنا لا أدعوك لأن تكون مثلي، كما أنك لا تدعوني لأن أكون مثلك: أسكر ولا تسكر، تكتب ولا أكتب، تريد الزواج وأنا أضرب عنه، وغير ذلك. وما يروقني في صداقتك هو أنك لست أنا، إلا أننا ننتسب معا إلى الجنس الآدمي، بما له وما عليه...

وأحسب، من جهة أخرى، أن هذا الصديق لهو من بين هؤلاء الأقلاء الذين يردون كل شيء إلى حسابهم الخالص، وبكثير من الوعي والدراية يؤمنون إيمانا راسخا أن الله في كل ما يصيبهم، سعدا كان أو نحسا، لا دخل له ولا مسؤولية. ولو كان له نصيب من المعرفة الدينية لاستشهد بالآية القرآنية ﴿كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾، أو بالحديث الشريف: «إنما هي أعمالكم تُردُّ عليكم».

*

عودا إلى التي أضحت دأبي وديدني، بطلب منها، بعد رجوعها من العمرة زرتها على وجه العجلة في بيتها، وبررت ذلك بكونها اختارتني دون غيري لتأتمنني على سرٍّ ثقيل يؤرقها ويرهق كاهلها. قالت والدمع يغزو عينيها وخديها:

- هل تلوم، يا يقظان، من يمد يد المساعدة لمريض معذب لا شفاء له، ويحرره من مأساة ضارية مستميتة؟

التزمت الصمت عن سؤال محيّر، وإن كنت شممت شيئا من فحواه، فأردفت مضطربةً شاهقة:

- إنه زوجي... في لحظة صحو غريب توسل إليّ مرارا وهو يبكي ويتضرع أن أخنق أنفاسه بمخدة، وفي المرة الأخيرة لبيت، فأنهيت أوجاعه الضارية ومعها معاناتي المريرة في رفقته... هل تجرِّمني يا سيدي؟... حياتي ملك يديك، إن شئت دمرتها وإن شئت حميتها.

أجبتها مقتضبا بعد أن هدأ روعها وحملقت في وجهي:

- سرك يا للّا مريم والله لن يفارق صدري أبدا... أما أمرك فموكول إلى الله وحده...

أبدت بعض الانشراح. أحطتها بما استطعت من علامات الطمأنة والأمان، ثم بعد استئذانها انصرفتُ دائخا معكَّرَ المزاج.

في بيتي أنشأت أقلِّب فعلة مريم من وجوه عدة، بعضها في التعليل والتبرير، وبعضها في الشجب والتحريم. ولما اختلط الأمر عليّ، طلبت صديقي الماجد لا لشيء إلا لأمتح من ميله إلى اللامبالاة والبسط المركوز في طبعه. لم أجده على الخط فتركت له رسالة. ولما التقينا في مطعم اعتدنا ارتياده، كانت الجلسة كلها تقريبا ملآى بنكته الماجنة وطرائفه العجيبة. وإذ سألني على هامش كلامه عن خليلتي، اكتفيت بالقول إنها بخير. وفي زخم ما يلهج به ناشدني أن أنبئه عن أحوال السياسة عندنا، فوضعته في صورة أحدثِها، ووصفت وأولت، فعقب على رصدي قائلا إنها إذن تعيش احتباسا يلوث الجو ويلغي الجودة والمسرة. أصدقته الحكم مستشهدا بمأثورة لبرودون: *"أنْ تمارس السياسة معناه أن تغسل يديك بالوحل"*. راقته العبارة، فشرب على نخب صاحبها كأسا طافحة.

عجبا كيف أن هذا الصديق لا يمل من الحياة ولا يتعب، خلافا لما أنا عليه! ديناميته المتجددة تقهر الرتابة ولا تترك للقلق منفذا.

وذات مساء تلقيت مكالمة منه أنبأني أن فحوصه الطبية الأخيرة كشفت عن إصابته بأورام في الكبد لعلها سرطان، وأنه في مشفى ابن سينا يخضع لإسعافات مكثفة. وصبيحة الغد إذ لم يجبني على هاتفي هرعت إلى زيارته، فوجدته مضطجعا

على سرير يحيط ببدنه مصل وأنابيب، ويبدو وجهه بالغ الشحوب. وحين حنوت عليه وقبلته داعيا له بشفاء عاجل، بث في أذني بمنتهى الهدوء كلمات أوضحها: الحياة معي طلعت بنت كلب، والكلب أفضل منها. غدارة لا تحب من يحبها... واسيته بأخرى للتخفيف عنه وتهوين مصابه بادعاء أن الطب قادر اليوم على علاجه. أبدى ابتسامة فاترة ثم أدناني منه وقال بالحرف: صاحبتك مريم لا أرضاها لك زوجة... مختلة، مرّت بسريري وأسرة أخرى... إهربْ منها يا عزيزي يقظان، إهرب...

على ضوء وصيته برقت في ذهني صورة من كانت تدعي أنه ابن خالتها وأخوها من الرضاعة. نبهتني المسعفة إلى انقضاء وقت الزيارة، فوعدت الصديق بالعودة إليه قريبا، وانسحبت متصدع الكيان، لا ألوي على شيء، عدا سوء حالته الصحية ووصيته الأخيرة.

بعيد مرور أسبوع فقط تخللته بعض زياراتي للماجد، أتاني نعيه نازلا عليَّ كالصاعقة. حزنت كثيرا وتألمت، كنت مع أسرته وخلانه ممن وقفوا لإعداد مراسيم الجنازة والدفن على أحسن وجه. وكانت هناك امرأة في متوسط العمر تنوح وتبكي أكثر من غيرها، قيل لي إنها زوجة المرحوم سابقا. وحين حلت ذكرى المتوفى الأربعينية قلت في تأبينه كلمات توخيت فيها الصدق والاختصار. وبعد الانتهاء تقدمت نحوي تلك البكّاءة

بجلبابها وحجابها الأبيضين، وشكرتني على ما قلت في حق الراحل، ثم دست في يدي وريقة تبينتُ في سيارتي أنها تحمل اسمها وهاتفها.

*

إهربْ منها...

هذا إن عادت مريم إلى الوطن؛ أما وأنها مددت إقامتها بالحجاز، فلا مدعاة للتفكير في الأمر. أمها، حسبما أنبأتني بالمايل، توفيت ودفنت بتلك الديار. وبعد ذلك لا وصل ولا وصال. صفحتها إذن طويت، ولو أنها خلفت لي، رغم كل شيء، أسفا وحسرة.

مات الماجد حتف أنفه، فلم يبق لي من الأصدقاء إلا قلة، وهم مثلي من أهل القلم والكتاب. وهؤلاء أغلبهم انسحبوا من الحياة العملية والإنتاجية، هذا بسبب مرض مستدام، وذاك من فرط اليأس والتخلي. أما الفرقة الباقية، ولعلي من ناحية مّا في عدادها، فإن أعضاءها يستميتون في الصمود والمقاومة، لكنَّ سُنَّة التصامم والتنابذ بينهم سارية، لا يتهادون كتبهم إلا غرارا، مخافة أن يسأل بعضهم بعضا إن كانوا قرأوها. وإجمالا كل واحد يركب مطية ذاتيته وأناه، وعلى ما عنده ينطوي وينكفئ، وقد يفرح بما لديه ويفاخر. وليت أن حملة الأقلام

عموما يعون في ضوء النقد واليقظة بما يتمادون في السكوت عنه والتكتم عليه. فبغض النظر عن أسماء شبكيّة قليلة تفلت من دور النشر البئيسة، أليس حريا بهم أن يفكروا في الأسباب العميقة لمغمورية كثير منهم، مغمورية تحكم على كتاباتهم وإبداعاتهم بالاستنقاص وضعف الحضور والتأثير خارج الحدود وحتى داخلها؟

*

على إثر انكسار علاقتي بمريم وفشلها وموت الماجد الأعز، عاودني ذلك الشعور باستثقال وجودي وبفراغي الجواني. فلكأن بيداء الجدب تكبر من حولي وتجذبني إلى تضاريسها الضارة وطقسها المرير... فما العمل حتى لا تتقيح نفسي بآثار أزمة تشتد ولا تنفرج؟ وما السبيل إلى رصد موقع الإحتقان وتركيب طوق النجاة، بعيدا عن كتابات فقيرة النسغ، مهلهلة القوام؟

تخليص واقع حالي ملخصا في كلمات قصار هو ما يلزمني فعله، توقا إلى تلمس بصيص أمل في الخروج من النفق وتحريك سواكني ما ظهر منها وما بطن: فإذن منذ مدة صارت تطول ينتابني شعور متكاثفٌ حادّ بضمور طاقتي الكتابية ونضوب معين إلهامي وخيالي. فهل أصيح بنفسانيين أغيثوني، والحال أن منهم من سيستهجن شكواي أو يعترف فيها بعدم

الاختصاص. فلا يبقى لي إلا مقاربة الشفاء بالغطسات في الماء أو في التحف الموسيقية والكتب الأمهات، ناهيك عن شيء من الأسفار إلى صحرائي الأثيرة. طبيب لي به معرفة قال لي: لستَ بحاجة إليّ ما دمت تقدر على الخوض في التداوي الذاتي. غالبْ قلقك المركوز في طبعك أو ما نسميه في قاموسنا هيبوكندرييا، فإن فعلت لربما تجوز مصابك وأوهامك...

صحّ كلام الرجل، لكن العبرة بالنتيجة التي ما زالت تتوارى عن ناظريَّ وتغيب، فأظل دون تحصيل هذا الإكسير الذي هو عبارة عن جذوة متقدة تفجر الكتابة، وتحوِّلها إلى سيلٍ ناعمٍ متناغم، وإلى ممارسة مرصعة بالحدوس والإشراقات الأخاذة. وفي انتظار ذلك، ما يسعني فعله اليوم هو، عدا مخالطة بعض الناس، إطلاق العنان لذاكرتي، والتخطيط بمخيلتي لإبداع قد أرتاح إليه، عساني بهذا وذاك ألهب قريحتي وجوانحي وأحول دون استكانة يدي وملكاتي.

في ذلك المنحى، ما عنّ لي تقييده، كقطب رحى وخطاطة لاحمة، هو ما يلي:

إنها قصة "علال الفرس" وكنيته القلدة (القوي البنية، الشديد البأس)، رجل في الثلاثين من عمره، يقطن في ضواحي مدينة سلا ويعمل بائعا متجولا للفواكه والخضر... توفيت زوجته بمصاب فجائي خبيث، وخلفت له صبية مريضة في

ربيعها الخامس. تحديا لهذه الإعاقة ومدفوعا بحبه لابنته، آوى في بيته حماته العجوز لتحرسها وترعاها، وشرع في العمل والكد من أجل تحسين مورد رزقه وتحمّل تكاليف الحياة، تتصدرها متطلبات حالة البنت الصحية. وقد صده كل هذا عن فتاة جارة كانت تراوده عن نفسه وتريده زوجا. ومن ثم نراه يعتني بجسمه حفاظا على لياقته البدنية، كما أنه كبائع متجول بات يطبق على تجارته أفكارا مبتكرة حول المنافسة والمزاحمة والترويج وتخفيض الأسعار، وذلك باستعمال البوق والموسيقى الشعبية الضاجة، متوخيا جلب الزبائن ولو حولَ ووسطَ دكاكين تباع فيها البضائع نفسها. وهكذا اضطر في مقاومته للباعة القارين إلى توحيد الباعة أصحاب العربات والاستقواء بهم.

احتجاجات أصحاب الدكاكين في سوق ذي موقع مركزي حدث أن تحولت إلى مشادات عنيفة، أفضت بعلال إلى المشفى على إثر ضربة بعصا تلقاها غيلةً من ابن أحد أولئك الباعة. وهنا، بين المرضى، أدرك النزيل عبث صراعه ضد متعيشين ضعيفي الدخل مثله، فقرر الرحيل إلى الدار البيضاء للعمل كسائق سيارة هوندا للنقل، ساعده على كرائها تاجر بازار كان يعطف عليه ويعده بأن يجد له شغلا مهما عند ابنه ما إن يستكمل دراسته بكندا ويعود إلى البلد حيث ينوي تأسيس شركة ذات شأن.

في الدار البيضاء كان سكنه مع حماته وبنته كسكنه في سلا ببيت صفيحي بإحدى ضواحيها. وهنا حدث ما فجعه وتحدى حسابه وتقديره: موت الصبية متبوعا بوفاة مولى البازار المفاجئ. وفاقمت هذا كله خيبة أمله في ابن المتوفى الذي أعرض عن تشغيله على نحو فظٍّ قطعي، فلم يتمالك علال نفسه،إذ هوى على المدير في مكتبه بالضرب المبرح قبل أن يتمكن من الهرب والإختفاء، إلى أن قُبض وحكم عليه بسنة سجن نافذة، لم يكن أحد أثناءها يزوره إلا حماته والفتاة الجارة التي أمست تتعقبه وتسدي له كل أشكال المساعدة...

أما خطاطة القصة الثانية، فهي:

من خلال عينة من قاطني بعض الشقق، تبدو عمارتها في قصة "علاش لّا!" كعالم مصغر يحيل بالضرورة على نسيج معيش أفراد وعلائقهم الاجتماعية مع بعضهم البعض ومع المحيط الخارجي المباشر...

في انعقاد ذلك النسيج وامتداده يحتل عنبر -بفعل المصادفة لا غير- مكانة ناتئة واصلة. وعنبر شاب أعزب، متوسط التعليم والخبرة، تربطه بالناس والأحداث علاقة ملؤها العفوية والصدق وقدر غير يسير من البراءة والسذاجة، من ذلك أنه يغلغل النظر في النساء بدعوى التخفيف من ضيقٍ في تنفسه واستجابةً لنداء قلبه الرهيف... من نافذة غرفته بين

الجيران تعرف على فتاة محجبة تطل بين الفينة والأخرى من نافذتها المقابلة. عشقها فبعث لها رسالة تعبر عن أحاسيسه نحوها وصدق نواياه؛ غير أن البنت ما لبثت أن اختفت صحبة زوج أمها المتوفاة، من دون أن تترك أيَّ أثر.

عمل الشاب بإحدى شركات توزيع الأفلام ثم -بتكليف من مديرها- متجسسا رغم أنفه على زوجة هذا الأخير، إلا أن خليل هذه المرأة، وهو رجل أمن بارز، يقبض على الجاسوس في حالة تلبس فيخضعه بمساعدتها لعقاب "الفلقة"، ثم يستحلفه على المصحف أن يبلغ مشغله بخبر استقامة زوجته ونزاهتها؛ غير أن عنبر فضل ترك عمله وقبول عمل آخر عرضه عليه صديقه حماد، وهو خدمة مدام كاترين في بيتها وحتى خارجه، كقضاء أغراض ومرافقتها في نزهها وزياراتها لمقبرة النصارى حيث يرقد زوجها وابنها. وهذه العجوز تبدو ذات حيوية وتشبث بالحياة، ولو أن بنتها الجانحة العاقة تعكر عليها أحيانا صفو مزاجها وأيامها... أما حماد فهو شاب متزوج وربّ أسرة، يمارس مهنا صغيرة متنوعة؛ له علاقة متميزة بعنبر يطبعها المزاح والعطف؛ وأما ثالث الاثنين فهو عمار، شاب غريب الأطوار، متزوج على هواه، تارة صدامي عنيف وتارة لينٌ رحيم. له قوة عضلية أهلته لتأدية خدمات معوضٍ عنها ثم لشغل مهنة الحارس الشخصي لرجل ثري وخصوصا لزوجته بارعة الأناقة والجمال.

في العمارة يتعرف عنبر على امرأتين تكتري كل واحدة من مدام كاترين شقة، وذلك لكونه يقبض منهما واجبات الكراء، الأولى أرملة وأم لولد، موظفة في مصلحة الضرائب؛ والثانية "سيدة أعمال" تتاجر سريا بمنزلها في بيع ألبسة مستوردة ومواد تجميل. علاقة صاحبنا بهاته تقتصر على قيامه بإخراج كلبها للنزهة، أما علاقته بتلك فقد نزعت بالتدريج إلى اكتساب طابع الود والتعاطف.

من الأحداث المؤثرة في عقدة السرد القصصي وتطورها: انتقال حماد وأسرته إلى طنجة حيث وجد عملا أهم وأضمن؛ رحيل "سيدة أعمال" إلى مدينتها فاس بعد مقتل كلبها وإفلاس تجارتها بفعل مساومات حُماتها من الرجال وتخلي النافذين منهم عنها؛ حلول الأرملة محلها في شقة من الطابق الأول واستبشارها خيرا بهذا الانتقال الذي كان لعنبر دور فيه؛ طرد هذا الأخير من دار مدام كاترين المحتضرة في مشفى، وذلك على يد وريثتها الشرسة؛ لجوء المطرود إلى فندق ثم إلى منزل عجوز كانت آواته سابقا.

ضمن الحلقات الختامية: عادت إلى الظهور فتاة النافذة، محبوبة عنبر الأولى، إذ علم من مقدَّم الحي أن رجل أمها اغتصبها وسُجن جراء ذلك، وأنها حبيسة مارستان الحمقى ببرشيد. وحين زارها لم يتوفق في محاورتها أو حتى الاقتراب

منها بسبب صدودها وصياحها. أما الفصل الأخير فيجمع عنبر بالأرملة وولدها في شقتها، ويوحي أن حدثا ما يتراءى في أفق علاقتهما...

بعد وضع الخطاطتين قيد الكتابة، أنفقت ساعات جمة في تمتين حبكتهما وإغنائهما بالأحداث والعقد، وأضفت إليهما خطاطات جديدة فرعية، قاصدا إلى مد أوصال بينها جمعاء ثم إعادة تركيبها وصياغتها على نحو يظهرها كأجزاء متماسكة من كلّ، أي كفصول في رواية واحدة.

لكن، -واحسرتاه!- ما هي إلا أيام من الكد في التحبير حتى انهدم الصرح كله، فأتيت على أوراقه المئة بالتمزيق، وذلك لِما أدركته فيها من تصنعٍ وهزالٍ وارتباك، أو قل من بقائها دون ما أبتغي وأريد. والحق أنه لم يأخذني أيُّ أسفٍ أو ندم على إيوائها سلة المرميات الموعودة للإتلاف.

ـ 3 ـ

بعد رسوب محاولتي تلك، نزعت إلى العزوف عن أيِّ محاولة أخرى. شعاري أمسى: الطي أولى والنسيان أشفى. ووافق ذلك هاتف من زهرة، مطلقة الراحل عمر الماجد، لا أدري كيف حصلت على رقمه، فعبرت لي بلسان صادق عن تقديرها لي ورغبتها في لقائي بمنزلها، على أن يكون اللقاء من صنف تقيٍّ طاهر. استجبتُ تلهِيّاً عن قلقي الباطني، فجالستها، والوقت ظهيرة، في صالون ڤيلا صغيرة ذات أثاث قديم، تسكنها مع جدتها وبنتها المراهقة وخادمتها. لاحظت أنها حولاء وتعرج برجلها اليسرى. دار كلامنا حول أمور متنوعة كان لها السبق في إثارتها والنظر إليها من منظور ديني صرف. فلم أر فائدة في معاكستها أو حتى محاججتها، بيد أني أخذت أحيانا أنبه إلى أن تلك قضايا صعبة شائكة، يستوجب إدراكُها وتناولها أكثر من وجهة نظر ومقاربة.

فكرت في أمر هذه المرأة المحجبة التي لا ترى حرجا في استقبال غريبٍ تحت سقفها ومحاورته. فقد تتعلل بعائشة أم المؤمنين التي كانت تقابل الرجال من قومها وتجادلهم وتروي

لهم الأحاديث النبوية وتفتي. وكدت أستوضحها في الأمر لولا أنها باغتتني قائلة:

- كان صديقك الماجد كثيرا ما يحدثني عنك واصفا إياك بالنبل والاستقامة، مما جعلني أحبك في الله حتى قبل أن أراك.

خطر لي نصحُها بتنزيه اسم الله عن علاقات البشر، إلا أني أحجمت لـمَّا أن سمعتها تقول:

- نقرأ في كتاب الله العزيز: ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ﴾. وكما فسر لي فقيه الحي، وسموه أبا هريرة تيمنا باسم المحدث الجليل المعروف بهذا الاسم، اللمم هي القُبلة والنظرة والغمزة، ويُستثنى منها المباشرة. فإن شئت ذلك فهو لك حلالا طيبا، أما ما سواه فإنه حرام منكر. هذا وإنك خارج نطاقي رجل طليق وحرّ.

استغربت كلامها في سريرتي أيما استغراب، فلم أردَّ عليه مخافة تيه اللسان أو إيتاء ما لا أريده وأنتويه. اغتنمت عودتها من صلاة وقدوم البنت والجدة، فاطمأننتُ على أحوال الأولى ووضعها الدراسي، وسمعت من الثانية أدعيتها لي بالهداية ولزهرة بزواج من رجل مثلي يسترها ويحميها، ثم قمت مسلما ويممت باب الخروج، مبديا علامات العطف والمودة. وفي مأواي لم أنفكَّ عن التفكير في زهرة وأقوالها التي ما سمعت بمثيلها من قبل.

في لقاء آخر، تحادثنا في بعض شؤون الدنيا، ثم عرجتُ سائلا: "إلا المباشرة"؟ فانقبضت قسماتها وأومأت بما يفيد التأكيد، فيما حَوَلُ عينيها يبعثني على دوار خفيفٍ شفيف. قلت مستوضحا:

- النظرة لا بدّ لنا منها، فكيف تكون القبلة؟

أجابت غير متحرجة:

- خاطفة سريعة تكون على الخدين.. أقصد أخوية، وتستلزم من طرفي تجديد الوضوء إذا ما تمت. أما في شهر رمضان فهي حرام، وإن حدثت بمحض الصدفة لزمتها الكفارة.

توخيت اتباع العجب إلى أقصاه، قلت بنبرة بين الجد والهزل:

- أما الغمزة، خصوصا إذا كانت ذات معنى، فأنا لا أحسنها، واحنا لا يحسن بنا تعاطيها.

ردت بلهجة المباركة والتأييد:

- معك حق... فلنسقطها إذن من حسابنا حتى نلتزم بالطهر والتقوى.

رفعت كفيها بالدعاء وقالت مسبلة الجفنين:

اللهم يا ربُّ أبعد عنا الشيطان حتى لا يكون ثالثنا، وقِنا

من حيله ووسوساته. والشهوة، تبّا لها وسحقا، قوِّنا يا الله على قهرها والهروب منها إلى عفوك ورضاك.

كررت معها "آمين" ثم استأذنتني في الذهاب للصلاة، وعرضت عليَّ مصاحبتها فيها، فاعتذرتُ وطلبتُ الانصراف متعللا بقضاء حاجة مستعجلة في الخارج، ثم كان لنا ما أردناه بعد أن بصمت على خديَّ قبلة بمواصفتها.

*

إلى أين يُذهب بي؟

زهرة ستكون لي صفحة أخرى أستقبلها، ليس من باب الشوق والرغبة بل فقط للتشويش على قلقي الدفين والسلوِّ عنه. أما في متم الأمر، فلا ريب أنها ستلحق بصفحاتي المرشحة للتلف. وفعلا، بهذا أنذر لقائي الأخير بها بين صينية شاي ومبخرة فواحة. أثناءه لم تألُ المرأة جهدا للتقريع في الراحل الماجد وذمه، قالت:

- أرجوك، سيدي يقظان، لا تنصحني بالحديث "اذكروا أمواتكم بالخير"... هذا الزوج الميت لا أراه إلا من حطب جهنم بسبب ما عانيت في عشرته وقاسيت... كافر زنديق. حاولت بكل جهدي أهديه إلى الطريق القويم، لكن من دون أي تحسن وجدوى. الصدود هو ما كنت ألقاه منه والتعنت

والإصرار في الغي... كان يعبد الخمر، أم الخبائث، ويسكر بالنهار والليل. كنت كلما ركبت سيارته للسفر معه، قادها بسرعة جنونية بدعوى أن هذا يبعث فيه لذة معتبرة. أما أنا فأغمض عينيَّ، وقلبي في فمي، وأطلب من الله السلامة. وذات يوم حدثت لنا حادثة، خرج هو منها سالما، وتسببت لي أنا في عرجي اللي تراه...

سألتها بصوت متلعثم خافت:

- هل سبق أن عنّفك مرة؟

- لولا خوفه من أخي الملاكم لكان فعل، لكنه لم يكن يتورع في تعنيفي بلسانه السيِّئ، يلعن أبويّ ويسب ديني وملتي...

- أخوك الملاكم، هل يمكنني اتخاذه كحارس شخصي؟

أبدت ابتسامة فاترة وأجابت:

- أخي اليوم متعرم في غرفته، لا يتحرك إلا بمقعده الجرار... اللكمات اللي كان يتلقاها طوال سنوات أصابته بجلطة دماغية ثم بشلل نصفي. والآن لا أعلم أين هو.

سألتها:

- وأنتِ هل تزوجتِ قبل الماجد أو بعده؟

حدقت فيَّ وقالت:

- تزوجت قبله رجلين من وجوه الجنة. توفيا الواحد تلو الآخر. أنجبت من الأول البنت خولة اللي رأيتها، ومن الثاني فتى انضم إلى تنظيم القاعدة وقُتل في صفوفها... وأنت هل لك أهل؟

رددت على الفور مقتضبا:

- كانت لي زوجة ماتت في حادثة سير هي وبنتنا.

عزتني وترحمت عليهما، وبصوت صافٍ حادّ أدلت بكلمات أدهشتني:

- والآن، وحق من خلق الذكر والأنثى والموت والحياة، لن أتزوج من رجل آخر يكون رابع الثلاثة، ويوافيه الأجل المحتوم ويخلفني بعده حية... عرجي، سمنتي وجروحي الروحية، كل هذا يحررني من الأمل في اتخاذ زوج، ولو كنتَ أنت.

كانت تلك خاتمة كلماتها التي بدت لي كفارق بيني وبينها. ثم كان فراق استحليتُ وقعه عليّ، ورأيت أنه لا يخلو من قبولٍ ووجاهة.

الآن، أشعر أني تحررت من كائنة تعتريها غرابة غير مشجعة على السبر، ويفوح فضاؤها بانسداد رطب يضيق به الصدر.

الآن أهرب منها إلى تركيبتي الباطنية، منقِّبا فاليا عن طبيعتها وخصائصها وعن قوام محركها وطاقتها. لذا بتُّ أتقوقع، أنكمش لأرصد بالتدقيق ما بي وما أنا عليه، لا كنرجس المغرم بصورته في صفحة الماء، بل كمتأمل ودارس لأناه كما لو أنه آخر.

أرى أنني توفقت إلى حدٍّ معتبر في طيِّ صفحتيْ مريم وزهرة، فلم يبق من إتلافهما إلا رمادٌ ضئيلٌ ماكثٌ في زاوية معتمة من ذاكرتي. لكن ما العمل والحيلة حين تؤوبان لمراودتي في رؤايَ المنامية؟

وفعلا، في بعضها تبدت لي مريم تارة على نحو خفيف عابر، وتارة مهددةً إياي باغتيالي خنقا إن أنا فضحت قتلها لزوجها المريض؛ لكنّ تبديها الأمضى والأقسى كان في مثولي معها أمام قاضي التحقيق بتهمة تواطؤنا على خنق أنفاس ذلك الزوج، كما ادعت هي وأقسمت. وتلت ذلك جلسة المحكمة المخصصة للاستماع إلى الشهود، تعرفت فيهم على حارس العمارة ورجال من سكانها، وكلهم أقروا بأني كنت على صلة وثيقة بالجانية، أزورها في بيتها وأختلي بها. ولم يستبعد أيٌّ منهم أن أكون شريكها في قتل البعل المسكين. ثم بعد فترة مداولة، نطق الرئيس في حق مريم وحقي بالسجن المؤبد، وتعالت أصوات من الجمهور تهتف بلِ الإعدام الإعدام... لم

يوقظني من الكابوس إلا صياحي الشديد ببراءتي وبطلان التهمة قلبا وقالبا.

أما زهرة فقد رأيتها فيما يرى النائم وأنا أنادمها ثم أراودها عن نفسها ملحا. وإذ قاومتْ وتمنعت اغتصبتها عنوةً غير آبه لصراخها وترديدها الضّاج: "إلا اللَّمم إلا اللَّمم"... وحين صحوت لحظت أني احتلمت، فقصدت دورة الماء للتطهر من جنابتي. وبعدها تمددت مسترجعا أنفاسي ومعيدا مزاجي إلى صفوه واعتداله.

*

يا عفراء مولاتي، أغيثيني!

في ارتيادي لمسكني والمدى البراني ولحديقتي السرية التي أنشأتها ولي فيها حق ومآرب، بدا لي أن أطرق أبواب بعض الحكماء سائلا عن المخرج والخلاص؛ فمن قائل: إذا خسرت لا تخسر العبرة، ومن قائل: إذا أتلفت الطريق تذكر من أين أقبلت، ثم تمثلت تلك الحكمة المنحوتة على جدار معبد ديلفوس اليوناني: *إعرف نفسك بنفسك*، وسوى ذلك مما تنوعت عباراته وتوحد معناه.

ماضيا، كنتُ أؤاخي الريح الطيبة وأحنُّ إليها متى توارت؛ كنت أطبع حركاتي ومحيّايَ بمياسمِ الخصبِ والمحبة، وأبتهج

بكل الأشياء الخيِّرة التي تصيبني ويغشى عبيرها قلبي وجوارحي. نوابضي الحيوية بدت لي إذذاك في أوج وهجها والأقدارُ طيعةً لاحت لي وعني راضية. وهكذا بتُّ أحتفل بالحياة وأسعى إلى التسربل بعبقها وزخمها والإرتقاءِ في مدارج أنوارها المطهِّرة.

ثم من حيث لا أدري إلا بعضه، أجهز عليَّ تحولٌ سالب وتصدعٌ باطني، أرديانى من جرحى الحياة. فعاد الأنا المقلاق إلى النتوء، ومعه لحظات الضجرِ المميتة والأفكارِ السود. فخالج دمي، جراء ذلك، بردٌ قارسٌ، وتردت معنوياتي وتلاشت.

فما العمل لتفريج الكرب عني وتجويدِ الوجود. لا أيَّ وجودٍ أريد، بل الذي يمخرُ عبابَه المعنى المضيء، ويسري الدفءُ فيه والحماسة، وتعلوه أكاليلُ الإبداع والرغباتِ الجياشة؟

وأتى الجواب جوانيا كالتالي، تحمله ريحٌ تائهةٌ حيرى، تهبُّ قويةً تارة وخفيفةً طورا:

إذن، تثنَّ يا هذا وتجرد لكتابةٍ تكون نصَّ النصوص، وما دونها تمارينٌ ليس إلا؛ كتابة لم تأتِ من قبلُ بمثلها حُسناً ورقيا. تُجريها وأنتَ في حالةِ سكرٍ وانفعالٍ هائلة، حالةٍ بديعةٍ مبدعة. تجرد واضعا عبرتكَ الأعلى في القصدِ والنية، وكن في ذلك متابرا وصابرا إذا ما تعسّر الأمر واستعصى. أما إن طال أمدُ الأمرِ وقل مدده، فحرك يدكَ في ورقك وداومْ حتى لا

ترقدَ وتشلّ. تواصلْ بعض الشيء، صاحبْ من تحسِّنك أحوالهم، وفوق هذا وذاك تمتع بنفسك حيا، وبالطبيعة الحافلة بالمخلوقات والعجائب... صدق النفري إذ قال: «*كلما اتسعت الرؤيا ضاقت العبارة*». لكن ما قولكَ في أقوامٍ كلما اتسعت عبارتهم ضاقت رؤياهم، وفي آخرين لا رؤيا ولا عبارة؟ ولا أحسبك ترضى أن تكون من هؤلاء ولا من أولئك.

أصبحتَ!

وهل لك، بعد نومٍ هادئ أو مرتج، إلا أن تصبحَ إما مكرسا عوائدك المكرورة المملة، وإما غريبا بنحوٍ مَّا عن ذاتك. ولا ريبَ أن هذا الإصباح الثاني هو ما يغريك ويطيبُ لك، إذ يهوِّن عليك أو يغيِّب عنك ذهابَ بعضك بذهاب يومك، وتآكلَ نفسك في مشيك إلى حتفك. وهكذا (كما كنتَ مع زوجتك المتوفاة) تتصفح حالك ميالا إلى مرحٍ لا يخلو من فرحٍ يثير فيك حمية أو حبّا، بعيدا عن أصقاع التعادي والتنابذ والمشاحنات، متاخما لمراتع استغنام الصفو والمسرات.

ألم تتعب يا هذا من تعبك؟!

أما أنا فقد والله تعبت من أنّاتك وشكاواك... الكتابة، قبلتك ومسعاك، إذا جنيت منها متعا ذاتية وتوفقتَ في مقاسمتها مع بعض الآخرين، فاستيقن أنها في العمق والحوصلة تظل عبارة عن نسيجِ خُدعٍ وأوهام.

فأحوال سوق الكتاب المتردية لا شك تعلمها، فمتى تهجر ذلك النسيج أو تقوم بتحجيمه حسب ما تمليه حجية الواقع وماديته؟ ثق أن كتاباتك، ولو ارتحت إليها إن هي، كما عند سواك، إلا صيحات في واد أو ضربات سيفٍ في سطح ماء. هذا ما يُستخلص في آخر الكد والمطاف، فعِ بما لا تقدر على حجبه بالستائر السميكة وأقاويل الزخرفِ والانخداع. وعليه، تيقن أن ما تسْطُره لن يغيِّر من سير الدنيا ولا من أوضاع الناس شيئا. فلا تنكر هذا وتحاججْ فيه، وإلا كنتَ من المدعين المكابرين أو المغفلين. علق إذن أمر الكتابة وشأنها، فإن لانت قناتها وطاوعتك فبها ونعمتِ، أما إن عصت وتمنعت فالأرض بما رحبت موئلك وملاذك، وكذلك الهواء الطلق وما تيسر من الأغيار.

*

هل من بديل عن مقالِ صوتي الباطني ونصحه؟ لا، لا بديل، ما عدا الركون إلى بوادر الانتكاس النفسيِّ والإحباط وترسخها، وهذا ما أمجه ولا أرضاه.

ما تيسر من الأغيار!

أقربهم إلى المناولة السيدتان مريم وزهرة اللتان لا يسمح لي فضولي الغريزي بنسيانهما تماما ومهما ادعيت. فماذا فعل

الزمان بهما، وعلى أيٍّ حال توجدان اليوم بعد أن فصلتهما عنى الأيام المتسارعة المتراكمة؟ هاتف مريم مقطوع لم ينفع في إحيائه إلحاحي؛ أما هاتف زهرة فجاوبني فيه صوت متهدج تأكد لي أنه لأمها التي اطمأنت إليّ إذ أنبأتني أن بنتها توجد بين أيدي أطباء في مستشفى الرازي بسلا، وزودتني باسمها كاملا ورقم غرفتها طالبة مني مد يد العون إليها.

زهرة إذن تشكو من مرض عقلي ألجأها إلى تلقي العلاجات الممكنة! علمت بالهاتف أيام وأوقات الزيارات، فهرعت إلى تفقد حال النزيلة صبيحة يوم غائم، لا يمنعني عن ذلك مانع ولا أيُّ تردد يذكر. حاملا باقة ورد وسلة فواكه قادني إليها حارس بعد أن أكد لي أنها ليست خطيرة، وحدد لي زمن الزيارة في ساعة أو أكثر إن كنت من أهل الكرم والجود، ثم أجلسني على كرسيّ حذاء سرير المريضة، وسحب مني الورد بدعوى أنه يقلل من الأوكسيجين في الغرفة، ونبهني قبل انصرافه إلى وجوب انتظار استيقاظها وذهاب مفعول الأقراص التي لا تنام إلا بها.

بعيد انصرام أكثر من ساعة أخذت المتمددة تتململ وترنو إليَّ بعينين مستنيمتين. وحين بادرتها بكلمة صباح الخير يا للّازهرة، جلست وسألتني عن هويتي فكشفت لها عنها. أخذت تقضم تفاحة، ثم نطقت بلسان ثقيل وكلام غريب

مفكك الأوصال، فهمت بعضه وغمض عليَّ معظمه:

«اسمك لا يهمني... لا أحتاجه... لكن ليش أتيت؟ لتتفرج عليّ... هذا مريستان مش سيرك عمّار... أو ربما جيت لتنام معي وتأخذ مني بوسات... لا أبدا ولو تنطبق السما على الأرض... الطبيب وأعوانه، كلهم يريدون النوم معي، وحتى أنتَ... لكن أنا مش قحبة... وأراك جايب معك الفاكهة بش تغريني... الجسد ذا لي وأنا مولاتو. والله ما أكون لأي واحد منكم، ولو تطهر بماء الورد... بنتي خولة فاسدة، هربت وما عرفت فين. وأنا مش بحالها... أنا أتقي الله وأخافه، ولو أني هذا أسبوع ما صليت... خليني أصلي وسر من هنا وإلا عيطت على الحراس... سر وما ترجع... سلطك عليَّ الطبيب والمدير... سر بالما والشطابة حتى قاع البحر...».

حين شرعت المرأة تصيح بي وتهددني، رأيت السلامة في الذهاب. قطعت ساحة تعج بالنزلاء والهرج، وقصدت الحارس الذي كان يتعقبني، دسست في جيبه فلوسا وطلبت منه أن يصحبني إلى الطبيب، ففعل. علمت من هذا الأخير أن زهرة مصابة بالذهان والبارانويا وأن علاجها صعب وقد يتطلب زمنا طويلا. سألته:

- هل من المفيد أزورها مرة أو مرتين في الأسبوع؟

أجاب بلهجة الحسم:

- ما فيش فايدة...

علقت:

- إذن ما الفايدة في وضعها داخل هذا المشفى؟

أجاب متبرما وبصوت لا يخلو من فظاظة:

- النزيلة تشكو من أرق شديد. لا بد لها من أقراص منومة حتى لا يسوء حالها أكثر. أقراص نحدد مقدارها هنا... ثم إنها حاولت مرة الانتحار. ألا يكفي هذا لجعلها تحت الحراسة؟

أومأتُ بالإيجاب وتركت لمخاطبي رقم هاتفي لاستعماله عند اللزوم؛ قدمت نفسي قبل الإنسحاب بصفتي صديق أسرة المريضة. على عتبة بوابة الخروج تسلمت من الحارس رقم هاتفه وأوصيته خيرا بزهرة المسكينة.

*

زهرة المؤمنة حتى النخاع حاولت الانتحار! كيف لا يصعب عليّ تصديق هذا ولا أذهل له؟ ركبت سيارتي وركنتها قريبا من منزلي، ثم ذهبت على غير هدى أجوب بعض الشوارع والميادين الفسيحة. ولما شعرت بشيء من الجوع دلفت إلى مطعم عامر قادني راعيه إلى طاولة لزبونين وقال

بشيء من المن: إذا كنت تنتظر جليسا أم لا فهي لك... اقتعدت الكرسي ملتفتا إلى ما حولي، فوقع بصري قريبا مني على زبونة وحيدة تستأثر بطاولة مثلي. متصنعا اللامبالاة، هتفت لمريم مرارا من أجل التلهي وقطع الشك باليقين أنها دخلت حقا في عداد المتغيبين بلا رجعة. فرحمة الله عليها إن كانت توفيت، وكان في عونها إن هي حيّةً ما تزال. تحاشيت إطالة النظر إلى جارتي حتى لا تظن بي سوءا، كأنْ تحشرني في زمرة المتحرشين، ولو أني شعرت بانجذاب إليها بسبب شبهها بزوجتي نجاة المتوفاة. ولكني بأُذني اللقاطة فهمت من كلامها مع النادل أنها تفضل تأجيل الطلبية ريثما يحضر من تنتظره، فأوحت لي بطلب التأجيل وللسبب ذاته. لكن ما هي إلا هنيهات حتى أحضرتُ صحني الرئيسي، وبعد أن أتيت عليه قصدت حديقة المطعم حيث دخنت سيجارة، ومتدبرا أمري مع الجارة ظللت معْرضا عن مبادءتها بالحديث، ولو أن الظرف لربما يسمح بذلك. لما عدت كانت قد أتمت أكلتها، وبعدها طلبت صلاده فواكه وقهوة ففعلت مثلها. علامات النرفزة كانت ما زالت بادية عليها وفي تعاملها مع الموبايل. وفجاة سألتني:

- حتى أنت سيدي أخلفت صاحبتك ميعادها؟

أومأت بنعم. أردفتْ:

- احنا إذن في الهم سوا... لا يهم. الرجل اللي انتظرتُه مجرد إنسان تافه... إذا جاء قبل مغادرتي المطعم، لا تكلمني ولا تنظر إليَّ أرجوك.

مدت لي يدها مصافحة وقالت: اسمي نوال، فأعلنتُ اسمي وتشرفي بمعرفتها، ثم دعوتها إلى مقهى مجاور، لكنها عرضت عليّ أن نلتقي صباح غد للفطور معا في السفين الراسي بالكورنيش، وكذلك كان. وهنا زدنا في تعارفنا إذ علمت أنها متزوجة بإنسان وسمته بالسيئ، وأن رجلها المتوفى ترك لها إرثا تديره ويغنيها عن أي وظيفة عمومية أو خاصة. الطامعون في مالها -قالت- تشم رائحتهم الكريهة عن بعد، فتهرب منهم هروبها من الطاعون. تحرِّم على نفسها شرب الخمر إلا مساء كل سبت، وتستحلي تدخين السجائر الرفيعة...

إنه لقاء أولي معها. لا شك أنها لم تقل كل شيء عنها، فهذا موكول إلى مستقبل الأيام، كما هو أيضًا حالي. أما ما أدليت به عن نفسي فتوخيت فيه الضروري حول وضعي المدني، ممسكا عن ذكر أي شيء زائدٍ عن الحد.

نوال، والحق يقال، لها من الحسن نصيب وافر. كلامها يطبعه الصدق والرزانة، فلا تتعصب وتفور، كما قالت، إلا

أمام ما تسميه القبح والوقاحة. تبادلنا عناوينا وتواعدنا على لقاء قريب. اقترحت عليّ إركابي في سيارتها كاطر كاطر وإيصالي إلى حيِّي، فقبلت شاكرا.

لم ألحق توا بمنزلي، مفضلا السياحة في الشوارع والساحات المكتظة بالغادين والرائحين والواقفين وبالسيارات، ولا تفكير لي إلا في ما حدث لي خلال يوم السبت هذا، الذي تغلبت شمسه على مطره، وتزركعشت سماؤه بكتل سحب متناثرة، بعضها ثابت وبعضها مهاجر، تحكمها جمعاء انفراجات نورانية واعدة... فهل على ضوء هذا الطقس اللطيفِ المعتدل أستبشر خيرا بعلاقتي اللائحة في الأفق مع الست نوال، هذي الوافدة الجديدة التي جمعتني بها الصدفة المحض وقرانات موافقة؟ ومسبقا أقول: أهلا بالعلاقة وسهلا وبوركَ في انقداحها وحدوثها. كانت الست فاتحتني بالكلام في المطعم، فلا أقل من أن أبادر إلى مكالمتها عما قريب، فالخير بالخير والبادئ أكرم.

في البيت قمت بأعمال اعتيادية، منها الانكباب على قراءة صحف ومجلات توافيني بها كل صباح من هي بمثابة خادمة قائمة بأعمالي، وسميتها، كما ألمعت، عفراء مولاتي وأسكنتها حديقتي السرية؛ لكن القراءة المسترسلة لم تتيسر لانشغال بالي بالتفكير في أمر نوال وجواز تعرض علاقتي بها لاحتمالات هي الآن في حكم المجهول. وفي غمرة تخميناتي

صاح بي صوتي الجواني أن ألتزم الروية والحذر في شأن امرأة قد تكون صادقة يؤمن جانبها، كما قد تكون مومسا ماكرة حرفتها الغواية والإيقاع بفرائسها من الرجال. صحَّ نصحُ الصوت وأدرك الصواب. فلا مناص من موقف التأني والتحقق، تجنبا للسقوط في فخٍّ وما لا يحمد عقباه. ودون هذا عليَّ برياضتي الأثيرة والسبوح في المطالعات الورقية والإلكترونية، كما بمد يد المساعدة لزهرة المصابة في عقلها وجوارحها.

في الغد يممت منزل هذي المسكينة للاطمئنان على حال أمها الحاجة البتول. ألفيتها تعاني من علل الشيخوخة، لكن ملكاتها الذهنية لا بأس بها. فهي تتذكر من أنا وأني كنت أزور زهرة وأن هاته كانت تخصني بأحسن الأوصاف. اعتذرت لها عن التقصير في زياراتي بسبب مشاغل الدنيا وهمومها ووعدتها بأخذها في نزهة معي بالمدينة وخارجها، ثم سألتها عن سبب سوء حال زهرة في المدة الأخيرة، فعزته إلى اختفاء بنتها خولة وتدهور صحتها وإلى أسباب أخرى قالت لا يعلمها إلا الله. أنبأتني أنها تعودها في المشفى مرتين أو أكثر كل أسبوع، تحمل إليها اللباس النظيف والغذاء الجيد، وأقرت أنها لا تفهم من كلام المريضة إلا الشيء القليل. استفسرت جليستي عن مصدر عيشها، أجابت أنه من كراء الطابق الفوقي في دارها التي هي ملك لها... إستخبرتها إن كانت حفيدتها تزور أمها في

المشفى فنفت، وإن كانت تزورها هي فقالت مرة في الأسبوع لتأخذ منها الفلوس فقط. أكملتُ شرب شايي واستقمت واقفا فقبلت رأس الحاجة، واعدا إياها بالمتابرة على زيارة زهرة والعناية بها، وقصدت الباب تتبعني أدعيتها.

ـ 4 ـ

في الخارج الذي لم تتغير مكوناته وعاداته، قادتني خطاي إلى المطعم الذي تغديت فيه أمس الأمس، ولم يكن يبعد عن مكان انطلاقي. رغبتي الكامنة، ولا ريب، أن أختبر ظني بالمدعوة نوال، فإما أن أجدها في نفس الطاولة وحيدة، فلا إثم عليّ، وإما أن لا أجدها كذلك فيصدق بنسبة مّا القول: إن بعض الظن إثم. تناولت أكلة خفيفة مسترقا النظر إلى عيون النّدل، فلم أجد فيها ما يدعو إلى الشك والريبة. هتفت لحارس المارستان لتقصي أخبار زهرة، فطمأنني عليها وسألني مهتاجا متى أزور.

لم تمض بضعة أيام حتى ذهبت أعود المريضة مجددا صبيحةَ يوم مشرقٍ ريان، فما إن دخلتُ عليها حتى وقفت وقبلت خديّ وجبيني ناطقةً باسمي، عاتبةً عليّ تقصيري في زيارتها. انتبهتْ إلى سلة فواكهي -هديتي- وقالت إن أكثرها يسطو عليه الحارس وبعض الحمقى، ثم تأبطت ذراعي وجذبتني إلى ساحة فسيحة عامرة بالنزلاء، أغلبهم رجال، بعضهم مشاة وبعضهم وقوف أو جالسون مسندين ظهورهم إلى

حائط خربٍ مشمس تعلوه شجرة بلوط. أثناء جولتنا كان منهم الذين يحيوننا بتحيات عادية فأردُّ بأحسن منها، أو بأخرى عسكرية مرفقة بصيحات وأنات فأغض الطرف عنها. أما زهرة التي كشفت الأنوار عن شحوبها وإصابة وجهها بالتجاعيد وأسنانها بالتآكل وشعرها بالتساقط أو الإبيضاض، فكانت لا تهتم إلا بي، تارة ترسل صوتها بالغناء وتارة تفوه بكلمات مبهمة قصار، مفاد أوضحها أن الحمقى والممرضين والطبيب يريدون قتلها. أقسمت لها أن هذا لن يحدث أبدا وآمنتها من خوف، ثم أخطرتها بزيارتي لأمها وبكونها بخير، فاكتفت بالقول: لك فيه أجر محسن... حاولت استدراجها إلى حوار مفيد ذي معنى، لكنْ عبثا إذ تجيبني بآيات قرآنية مفككة ملحونة أو بأمثال لا صلة لها بما أذكر. تأكدتُ بما لا يدع مجالا للشك أن زهرة في المرض العقلي مقيمة، تخبط بلسانها خبط عشواء فتضحو هي والمنطق ضدين. وبالتالي عن هذا المشفى لا محيد ولا بديل، ومنه لا خلاص ولا مفر.

استمررنا في ذرع الساحة بخطوات متثاقلة بين مجانين ينظمون حركة السير بصفارات وآخرين يكلمون أنفسهم بأصوات جهيرة، فكانت لا تنفك عن السهوم في عالمها الخاص، وأنا أهبها ساعدي تتوكأ عليه. وفجأة اعترض سبيلنا نزيل، فلوى على ذراع رفيقتي ناعتا إياها بالخائنة والزانية، مدعيا أنه زوجها

بشهادة عشرين نفرا، فما كان مني إلا أن خلصتها منه وهددته بالضرب إن لم يزهق. ولما أتممنا بعض دورات أقبل الحارس المعلوم مرفقا بممرضة، وأعلن أن وقت العودة إلى الغرفة حان لتناول الدواء، وكذلك كان.

ولما خلوت بها تمددت على فراشها، وحشرت رأسها بين مخدتين وقالت ما يفيد أنها تفعل هكذا كل ليلة لحفظ رأسها من زلزال إذا حدث. وعللت أن الرأس حالئذ لو مسته الكارثة بسوء لكان مجلبة لهلاك سريع أو بطيء لا مردّ له؛ ثم أضافت بصوت منهك بعد أن طوحت بالمخدتين عرض الحائط: "حتى الحمقى يطمعون فيَ... هذي زهرة أو ما تبقى منها... حتى الله والأولياء تخلوا عني... أنت لا تريد تنام معي ولو أرجوك تفعل... ما صرت لايقة لشيء... أنا لا شيء... بعوضة، جناح بعوضة... صفر مكور... كذبوا عليّ، عينوني ملكة جمال المارستان ونواحيه... سخروا مني... كلاب والكلاب أفضل منهم". ثم بغتةً شرعت تصرخ وتستغيث، فجاء ممرضان، واحد قيدها إلى سريرها، والآخر وخز فخذها بإبرة قال إنها للتهدئة، وطلبا مني مصاحبتهما إلى مكتب المدير. هنا أمهلتني الكاتبة دقائق ثم أدخلتني عليه، رددت التحية وجلست قبالته كما طلب. قال:

- إيه نسبك بالسيدة زهرة الزهراوي؟

ترددت قليلا ولفقت جوابا عفو الخاطر:

- هي بنت خالتي وزوجها صديقي أوصاني بها خيرا قبل موته...

- بنت خالتك! لا حاجة إلى التحقيق... مرضها ربما علمته من الطبيب. وضعها صعب ولا أمل في شفائها إلا بمعجزة... الغرف الفردية في هذا المشفى ما عادت كافية، والغرف الجماعية لا تصلح لأكثر المرضى العقليين، بسبب هرجهم ومشاداتهم الكلامية وحتى العنيفة... رأيي أن تنتقل السيدة إلى بيت أمها وتتفضل أنت بجعلها تحت حراسة وإسعاف ممرضة على نفقتك... إيه رأيك؟

سألت على التو:

- وموقف الطبيب؟

أجاب بشيء من النرفزة:

- أنا من يدير هذي المؤسسة، ولا علاقة للطبيب بالأمر.

ارتأيت أن أهادن الرجل حتى لا يتخذ في حق زهرة إجراءً تعسفيا يسيء إليها، قلت:

- أمهلني، السيد المدير، يومين أو ثلاثة حتى أفكر.

- هذي بطاقتي، وأنا في انتظار ما قررت.

صاحبني إلى بابه مودعا، قصدت بوابة الخروج حيث جانبت الحارس المعلوم وهو يرنو إليّ بنظرات متملقة. دلفت إلى أقرب مقهى، وفيه قلّبت عرض المدير من كل وجه، فملت إلى التشكيك فيه بل رفضه. وطلبا لليقين هتفت لمحامي من قدامى الأصدقاء. لخصت له القضية فصاح: المدير نصاب، ولا حق له في طرد المريضة ما دامت تعالج في مشفى الرازي العمومي. إذا ألح عليك في طلبه كلفني بملفه.

عدت إلى منزلي مطمئن البال، فلم أكلم المدير البتة، حتى إذا مضى أسبوع نادى عليّ الحارس يخبرني أن زهرة انتحرت في غرفتها. هرعت إليها، بادرت إلى طلب شهادة الطبيب الشرعي فقُدمت لي، تقول إنها ماتت بتجرع السم. خطر لي أن أسأل المدير عمن أتاها بالمادة القاتلة، وتصورته يجيبني بصوت فظ: إنه ولا شك أحد زوارها وقد تكون أنت... لاح لي أن الرجل مرتاح الآن لكون نزيلة قد نقصت من عدد النزلاء. حينها انحنيت على الجريحة حتى الموت باكيا في صمت، ثم استقدمت موظفا في مطرح الموتى أعرفه، كلفته بنقل الجثمان إلى منزل الأم وبالسهر على مراسيم الجنازة والدفن. فمرَّ بفضله كل شيء على ما يرام. وكانت الأم، التي أخفيتُ عليها حدث الانتحار، تستقبل المعزين بعينين جافتين وخاطر كسير، وتغدق عليّ عبارات الامتنان وأدعية الخير

والتمكين. ولم يفتها أن تعرّفني بخولة بنت المرحومة فعزيتها وسلمتها رقم هاتفي كيما تطلبني عند الحاجة.

*

عودا إلى مأواي، انتابني حزن لاذع أنساني حالتي الخاصة ووساوسي. أما السيدة نوال فقد غابت عني إما بسبب أنها دخلت معي لعبة شدِّ الحبل، أو لكونها ألغتني من حقل ذاكرتها واهتمامها تماما. فكري كله انصرف إلى زهرة التي يغلب الظن أنها أودت بحياتها تحت ضغوط همومها وشقاوتها، ومنها حياتها المريرة مع الراحل عمر الماجد زوجها السابق، ومنها أعطابها البدنية والنفسية واختفاء ابنتها خولة؛ ولن أنسى ما قالته لي يوما بصدد نفورها من جسمها: عرجي تراه، أما حِميتي فهي جهادي الأكبر، ولو أن التوفيق يعرض عني. إني، يا يقظان، أرتعد خوفا من أن تكون السمنة، لا سمح الله، منطبعة في رحلي الجيني، فلا شفاء منها ولا تخفيف...

لمداراة حزني بما يناسبه ويطاوعه، لم أجد من حيلة إلا في الإنصات إلى معزوفات من الكمان والناي، تلتها مقطوعات من الفلامنكو والفادو. وبعدها أقدمت على مشاهدة فيلمين رومانسيين لعلهما يسهمان في تعزيتي وسُلوي.

*

"الكتابة إن عصت وتمنعت، فالأرض بما رحبت موئلك وملاذك، وكذلك الهواء الطلق وما تيسر من الأغيار"... كذلك كان نصح صوتي الباطني. ويبدو لي أني أنجزت قدرا في شق ما تيسر من الأغيار. وكانت فرصة تمتينه أني توصلت بدعوة إلى حفل تكريم الأستاذ عبد الواجد الراجي، الذي أكنُّ له إعجابا وتقديرا فائقين. فالرجل عُرف بكتاباته العميقة الرصينة ومواقفه الصادقة الجريئة وبثقافته الواسعة. تقلب في مناصب مهمة، واستقال من أكثرها لما أن ضاق بها ذرعا، إما بسبب فشوّ الفساد فيها، وإما من جهة تقليص سلطته عليها. كما عُرف أيضًا بدعوته إلى إقامة نظام الحكم على أساس ملكية برلمانية، تسود بالعدل ولا تحكم.

ومما جاد به قلمي في ذكر بعض مناقب المكرّم ومزاياه وعرضتُه أمام الحضور معتذرا عن الإيجاز والتقصير:

«خلافا للمثل السائر: "في المغرب لا تستغرب" يذهب أستاذنا إلى أن علينا بالأحرى بتقوية طاقتنا الاستغرابية، أي التعجبية والتساؤلية، وذلك بإزاء ظواهر الاختلالات والمغرّبات التي تكتنف صعدا عديدة متعالقة من حياتنا ومعاملاتنا، وتخل بواجب المعقولية والترشيد. ومن باب الحق في الاستغراب، أسوق أمثلة ملموسة كان لأستاذنا الراجي السبق في كشفها، معبرا عن حلمه برؤية باحثين وفاعلين اجتماعيين يقدمون على

إنشاء مرصد تكون مهمته ضبط تلك الإختلالات والمغربات والإنباء عنها وتحليلها بقصد إزاحتها أو على الأقل إضعافها.

من تلك الأمثلة كثرة المجالس التي يزاحم معظمها اختصاصات حكومية. وفي هذا السياق يورد مجلس المستشارين ووزارة الاتصال، وكلاهما يمكن الاستغناء عنهما من دون أي إخلال بسير مؤسسات الدولة، بل إن هذا الاستغناء من شأنه أن يعود بالفضل والفائدة على الميزانية العامة، وأن يعقلن -في حالة مجلس المستشارين- الحياة البرلمانية، علما بأن هذا المجلس يقوم بمجمل أدواره المجلس الاقتصادي والاجتماعي والبيئي. هذا علاوة على أن نظام الغرفتين يقر بأن في حالة تعارضهما حول سن القوانين، فإنه يُؤخذ بما ترتئيه غرفة النواب، وهي التي لها وحدها الحق في تقديم ملتمس الرقابة ضد الحكومة وإسقاطها عند اللزوم، مما يحوِّل مجلس المستشارين إل غرفة تسجيل لا غير.

ومن المغربات أيضا، التي أثارت حفيظة المحتفى به، هو أن نفرا من الإنسِ اجتمعوا فدعوا إلى استبدال العربية الفصيحة بالعامية الدارجة في التعليم، كما لو أن العامية ليست مشتقة من الفصحى الوسطى أو الحديثة ومتفرعة عنها؛ وتلك في عرفه دعوة فاسدة علميا وتربويا، يروّج لها زمر من الصحافيين والاشهاريين واللهجويين، مدعومين من طرف لوبيات متنفذة

داخليا وخارجيا، فتراهم يخبطون في الأمر خبطَ عشواء، ويهرفون بما لا يعرفون، لا يهمهم في ذلك التاريخ كخزان تجارب وعِبر، ولا منطوقات الدساتير، ولا إعمال مناهج البحث المقارن والمتزن الرصين. وحتى كتاب فرنكوفون، كما أبان الأستاذ الفاضل، انساقوا وراء تيار اللامعرفة ذاك للإسهام في الإجهاز على العربية بدعوى أنها لغة "كلاسيكية"، أي ميتة في عرفهم المختل، أو للخلوص إلى القول بأن العامية هي "لغتهم الأم"، مع أن لا أحد منهم يكتب بها، بل لا أحد يحسنها ويستعملها حقا؛ وهذا كله يجهر به هؤلاء وأولئك في المقالات والإعلام السمعي-البصري، كما لو أنه لا توجد دراسات ومعاجم كثيرة، ساهم المكرم في بعضها، تبرهن بالدليل المادي على صلات القرابة والرتق الكثيرة، والمجهولة عموما، بين طبقتي العربية، الفصيحة والدارجة، أو كما لو أن الفرنسيين مثلا في حياتهم اليومية والأسرية يتكلمون لغة موليير وفولتير ومالارمي، أو ليست لهم لهجاتهم العامية ولغاتهم الإقليمية. فمن في فرنسا مثلا، يتساءل باحثنا المفكر، طالب يوما بإحلال عاميتها محل لغتها الفصحى، ولو في التعليم الأولي؟ وهل نادى بذلك أحد بعد صدور تقرير عن منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية في 2015 يخفّض مرتبة فرنسا بمقياس البرنامج العالمي لمكتسبات التلاميذ؟ طبعا، كما

يرى، لا أحد، لأن اللغات الأمهات، أو ما يسمى كذلك تجاوزا، لا تعد الأطفال، على أكبر تقدير، إلا لفهم كلمات الأغاني والأحاجي المحلية دون اللغة المفاهيمية والمجازية المكتوبة والمنظمة التي يكون فضاؤها الطبيعي هو المدرسة. أما في مغرب المغربات فقد حصل ذلك وسرى!

وختاما، كيف لا نستغرب مع الأستاذ أمام بقاء دوريات حبرا على ورق، كان يوقع عليها وزراء أُوّل سابقون ويرسلونها إلى مختلف المرافق والمؤسسات العمومية لإلزامها باستخدام اللغة العربية، تفعيلا لرسميتها المدسترة المواكبة لتاريخ المغرب المستقل، وتقديرا لوجودها المكتوب والمنتج في تضاعيف قرونه المديدة.

أطال الله في عمر الفاضل عبد الواجد الراجي، ومتعه بالصحة والعافية، وجعله معينا لا ينضب ومثالا للعلم والشجاعة يُقتدى ويُستلهم، والسلام عليه وعليكم ورحمة الله وبركاته».

وتلت كلمتي شهادات أخرى شيقةٌ صادقة، استوقفتني واحدة لمشارك لا أعرفه، قال في متمها: وقد ظل الأستاذ، نُعِّمنا بحياته وعلمه، يدعو إلى القطيعة مع سياسة ترك الحبال على الغوارب ودار لقمان على حالها، إذ أن زماننا هذا في عرفه هو زمان التنافسية الاقتصادية، والتكتلات الاتحادية والتعاونية، وتسارع الأحداث الجسام الفيصلية، التي تستوجب

الاندماج الدينامي الفاعل في سيرورة العولمة والتفاعل البناء مع انتفاضات الناس ضد أنظمة الاستبداد السياسي والقهر الاجتماعي والمعيشي، كما حدث إلى حدّ ما إبان ما أسميناه "الربيع العربي". وبالتالي يرى أستاذنا أنه أمسى اليوم من المستعجل فكُّ الارتباط كليا مع مسلكيات التلاعب بالوقت وتزجيته هباءً منثورا، وإلا ارتدت علينا عقارب ساعاته بعواقب وخيمة سيئة، كما حدث لنا فعلا طوال عقود مضت. إن الحكامة الجيدة عنده هي أيضًا التدبير الجيد للزمن بالأجندة المحكمة، والبرمجة الحكيمة، والمواعيد المستجيبة جميعها للانجازات المهيكلة الرافعة، التي تتأبى التسويفات والإبطاءات المخلة المعرقلة. والسلام عليكم ورحمته وبركاته.

ثم دُعينا إلى حفل شاي كان مناسبة تبادلت فيها مع المكرم عبارات الشكر والإمتنان، وأحييت الصلة ببعض الأصدقاء القدامى، إذ تراشقنا بشيء من الذكريات، وتبادلنا أرقام هواتفنا الجديدة، وتواعدنا على إجراء لقاءات في المستقبل المنظور... كذا أكون على عتبة رفع العزلة التي فرضتها على نفسي أحيانا، مذ رزئت في زوجتي وابنتي وأصابني عقم الكتابة وضمور جذوة الإلهام.

*

في ميلي الجديد إلى الغير، اعتلت ذاكرتي صورة السيدة نوال التي لم أنسها، بل كانت في زحمة الأحداث والنوازل تعْبر من حين لآخر خاطري كطيف لطيف أو نجم ساطع. واليوم، ولو بعد مرور شهور شتى لم أحسَّ بسرعتها، بات من اللياقة واللباقة أن أبادر -أنا الذكر- إلى مكالمتها والسؤال عنها. وكذلك فعلت لما أن اشتد تشوقي إليها.

صوتها على الخط بدا لي دافئا، حسن النبرة والوصل. تحادثنا قليلا وضربنا موعد لقاء في بيتي لسبب قالت ستطلعني عليه وجها لوجه. حين استقبلتها كان الليل قد جنّ. كانت ترتدي جلبابا وعلى رأسها حجاب، ويخالج صوتَها وحركاتها شيء من الخوف. تأكد لي شبهها بزوجتي نجاة، إلا من تفاوت يسير في القامة. دعوتها إلى تناول ما هيأته من مأكل ومشرب، فاعتذرت وقالت:

- تراني، سيد يقظان، متنكرة في هذا الزي وحذرة محتاطة، والسبب أني أوجد على عتبة الطلاق. حياتي مع زوجي صارت لا تطاق، وهو اليوم يتهمني بمغادرة بيت الزوجية مع أني مقيمة في منزل والديّ، ويتجسس عليّ حتى يجد مبررا لانتزاع بنتي وحرماني منها. لهذا لا يمكنني أراك إلا وأنا متخفية... امرأة مشكلة، هوذا وضعي... وأنت كيف حالك؟

حدثتها عنه لماما، وطمأنتها على أني، من جهتي، لا أريد لها أيّ حرج أو سوء يكون بسببي. شكرتني وقالت:

- لا شك عندي أنك إنسان متخلق نبيل ولا تحب لي إلا الخير... وكيلي يؤكد لي أن النطق بالطلاق سيتم في آخر الأمر بعد الاتفاق مع الطرف الثاني على تقاسم المتاع وزمن رؤيته للوليدة المشتركة... في المطعم حيث التقينا من قبل، الرجل اللي انتظرته ولم يجئ هو زوجي... الآن عليّ بالذهاب وقد لا أراك مرة أخرى إلا بعد حصولي على حريتي... اعذرني.

أمّنت لها الطريق إلى سيارتها، تصافحنا بحرارة وافترقنا. موقف نوال في غاية الصواب، ولن أخالفه وأشوش عليه ولو بطلبها عبر الهاتف وباللقاءات السرية. فالحذرَ الحذر حتى تنحلَّ العقدة ويصفوَ الجو.

*

صباح الغد قصدت الحاجة أم زهرة، فما إن استقبلتني فرحةً بزيارتي حتى أنبأتني أن حفيدتها خولة نائمة في غرفتها تعوض ما فاتها من نوم ليلة الأمس. وكذلك حالتها -قالت- منذ عام تقريبا بعد أن غادرت المدرسة وخالطت فتيات زائغات؛ وأضافت أنها بلغت العشرين ولا شغل ولا زواج، ثم ترجتني أن أساعد على هديها سواء السبيل، سيما وأنها أمست

أحيانا تغيب عن الدار شهرا أو أكثر من دون أن تترك عنوانا أو ترد عليها في الهاتف. وعدت الحاجة بفعل ما في إمكاني وأخذت منها رقم الجانحة. وبينما تأهبت للخروج إذا بالفتاة تدخل علينا، شاحبة الوجه، مشعثة الشعر. ألقت علينا "صباح الخير" بصوت مبحوح متعب، جلست قبالتي تنظر إليّ بعينين مستنيمتين، قالت وهي تدخن سيجارة:

- بدل الإنصات إلى خرافات جدتي، عرفني سيدي بنفسك حتى أحدد ما تريد مني

آثرت السكوت كيما أحفزها على الاسترسال في الكلام، أردفت:

- أعلم أنك إنسان ذو مال وسخي. ساعدت المرحومة أمي وهذي العجوز، كثّر خيرك، وأنا أنتظر حصتي، لكن من دون شروط... أكره الشروط.

أجبتها ملاطفا مهادنا:

- المرحومة زهرة أمك كانت زوجة أعز أصدقائي. مات قبلها كما أبوك، رأيت من واجبي إعانتها في محنتها. لم تكن بيننا، والله شاهد، إلا علاقة الود الخالص.

قالت بصوت مشاكس:

- لا تهمني حياتك الخاصة، كما أني لا أسمح لأيٍّ كان

يتدخل في حياتي الخاصة. تعبت من كلام النصح والارشاد، كلام لا ينفع ولو شوية أمام قساوة الحياة ومتاعبها... أبي مات وأنا طفلة، تبعه عمي اللي كنت متعلقة به، وأمي اللي حرمتني من عطفها ومالها، أنتَ تعرف حكايتها.

شعرت أني بمحضر بنت صعبة المراس، حنّكتها جراح الحياة بالرغم من فتوة سنها. تساءلت في نفسي: ماذا بوسعي فعله لكي أعيد نحت شخصية هذي المنحرفة الصلبة العنيدة؟ ماذا بوسعي كيما أحوِّلها إلى مادة خام لينة وأنشئها نشأة جديدة؟ لا بدّ لي في ذلك من معجزة في زمن جف فيه معين المعجزات وعزّ سريانها. لكني مع ذلك لن أحرمها من فعلي الحسن، ولو لم يفدها إلا بمقدار، معملا استطاعتي في الترويض ببيان اللسان وصفاء القصد.

أقدمت الجدة بصحن فطور، وبعد أن أتت الفتاة عليه كاملا استأذنتني في تهييئ خروجها لقضاء بعض الأغراض. آثرت انتظار عودتها حتى أنظر إلى أيّ هيئة ستؤول. تحادثت مع الحاجة في أمور متقطعة، وألحت في إيصائي بالإعراض عن إعطاء حفيدتها أي قدر من المال، لكني خالفتها الرأي، فائتمنتها على شيء منه، إذ فكرت في نفسي أن المال وسيلة نافعة إن كانت غايته الإسهام في تقويم اعوجاج إنسانة وإنقاذها من حاضر شقي ومستقبل أشقى. وما هي إلا لحظات حتى

مثلت البنت في زي عصري أنيق وبشعر مبوكل ووجه برّزت حسنه مساحيق. قمت للانصراف، سلمت على الحاجة، وإذا بخولة تطلب مني أخذها في سيارتي إلى الكورنيش حيث لها موعد. وحين وصلناه، فاجأتني معلنة أنْ لا موعد لها إلا معي. سألتها متحرجا عن الموضوع، قالت إنه النظر في صيغة المساعدة التي يمكنني عرضها عليها، وماذا أطلبه منها في المقابل. قادتني إلى سفينة المطعم الراسية على شاطئ نهر أبي رقراق، فقعدنا حول طاولة منعزلة لتناول الغداء معا. مدحتُ لها البحر ورقة الطقس مطولا، ثم سألتها عن رأيها، قالت وضعُها حجب عنها الطبيعة كلها فلم تعد تهتم بها. الرومانسية، أضافت، هواية المترفين ومن لا هموم لهم... ساد صمت فيما النادل يرحب بنا ويسجل ما نريده. بادأتني بالحوار فقالت بصوت يتأرجح بين اللين والصرامة:

- اسمح لي أولا أن أسميك عمي حتى تسقط الكلفة بيننا... لنتحدث بالواضح والمكشوف ونلعب بأوراقنا على الطاولة... تعينني على إيجاد عمل في فندق مؤقتا ثم على الهجرة إلى بلد خليجي، وفي مقابل هذا وما تهبني من مال لك جسمي...

قاطعتها بصوت حاد:

- لا أريد جسمك!

- لا تعجبك النساء؟

- تعجبني من أختارها ولا تكون في سنك.

- إذن ساعدني وأجرك على الله.

- أنتِ مع المساعدة وضد الشروط. وماذا لو حدثتك عن شرطي الرئيسي.

- هاتها يا عمي أنظر فيها.

- أن تكفي عن...

أقبل النادل بالصحون، وطلبت هي زجاجة نبيذ فأحضرها، قالت:

- الأكل من دون خمر لا يصح... أرى أنك لا تشرب... قلتَ أن أكف عن ماذا؟

- عن الدعارة... اشربي إن شئت ودخني، لكن لا للدعارة.

- ثق أني ليست محترفة. أمارسها بالقليل وبكثير من الحيطة، وإلا تريد أعيش بالماء والهواء أو أمد يدي في الشوارع.

- لا هذا ولا ذاك. الشغل الكريم في انتظار زوج صالح هو الحل.

- والله عمي تتكلم كالمرحومة أمي. مستواي الدراسي دون الباكلوريا وتظن العمل على قدِّ يدي.

- هنا يمكنني مساعدتك. قريبا أنظر في الأمر مع بعض معارفي وأخبرك بالنتيجة. والفلوس إذا أعطيتك منها فعلى سبيل السلف.

- أقبلك عمي على حنكك ورأسك، وأشكرك...

دعتني إلى صالون المطعم، فما إن قعدنا حتى جاء النادل بالقهوة والشاي وعرض على خولة غليون الشيشه، فتناولته وأخذت تدخن مستمتعة بامتصاصه هامسةً في أذني: هكذا أسوي مزاجي وأستحلي الوقت والجلسة... رغّبتني في التدخين فامتنعت. قلت لها بلهجة حازمة:

- شرطي الأهم إذن أن تتجنبي منذ اليوم الفاسدات والملاهي الليلية... والآن كفي عن الشرب وقومي أعيدك إلى منزل جدتك. تركت لك عندها بعض السلف. اقتصدي في صرفه، وانتظري مكالمتي في شأن عملك.

في موفى الأسبوع، ليلة يوم سبت، ترجتني خولة أن أصحبها إلى *نايت كلوب* وصفته بالنقي، وذلك حتى تأمن بحضوري وتودع بعض معارفها. لم أر حرجا من تلبية طلبها، فانزويت معها في منصة ذات ضوء خافت، وتركتها بين الفينة والأخرى تقصد فتيات لمكالمتهن أو للرقص معهن. ومرت الأحوال على أحسن ما يرام، إلى أن رأيت شابا مخمورا

يناوش محروستي ويتحرش بها. فما كان مني إلا أن حذرته وأمرته بالابتعاد، تحلق حولي صحابه مهددين إياي، فوقعت بيني وبينهم مشادات لفظية لم تخلُ من عنف، فلم ينهها إلا تدخل حرس الملهى. وبعد أقل من ساعة، آثرت مغادرة المكان رفقة الفتاة، إذ ضج بهرج موسيقى التقنو، وطاشت فيه الرؤوس والأيدي.

عرضت طلب توظيف البنت على ربّ فندق أعرفه، تردد بأدئ الأمر ثم قبل إرضاءً لي بأخذها شهرين على سبيل التجربة كمضيفة مساعدة. أخبرت المعنية بالنتيجة والشرط، فشكرتني وجدتُها كثيرا، وتمنيت لها كل التوفيق. لكن ما إن مرّ شهر واحد حتى أنبأني المشغّل بأنه طرد البنت لما ضُبطت في حالة تلبس جنسي مع أحد الزبائن، فاستسمحته والتمست معذرته وعفوه. وبعد أيام استخبرت الحاجة عن حفيدتها فقالت باكية إنها جمعت شانطتها وذهبت إلى حيث لا تدري، ولو أنها رجحت أن تكون الوجهة هي طنجة ومنها ربما إلى إسبانيا، كما فعلت من قبل مرتين. ضربت صفحا عن خولة، معرضا عن البحث في شأنها ومسالك ضياعها. أما جدتها فظللتُ على صلة بها، أزورها متى استطعت وأصحبها في بعض النزه في المدينة.

وذات يوم حدث ما لم أتوقعه قط: رجل قوي البنية يجول

في بيتها ويصول صحبة شاب مخنث. أكدت لي أم زهرة أنه ابنها من زوجها الثاني المتوفى، ولم تحدثني عنه من قبل. رأيتها في منتهى الارتباك، تريد أن تكلمني فيمنعها الابن، ثم أشار عليّ بصوت فظ أن أزهق، مدعيا أني إنما أرشي أمه بالصدقات وعيني على منزلها لأشتريه منها بثمن بخس، فأحرمه منه هو الوريث الشرعي. حاولت إقناع الرجل ببطلان ما يذهب إليه مؤيدا بما استطاعت الحاجة قوله. وحين تيقنت أن الكلام في الموضوع لا ينفع تحت تهديد المخنث، آثرت الانسحاب بدل اللج في ما قد لا يحمد عقباه. وبعد مرور شهر استخبرت حارس العمارة عن حال العجوز المسكينة، فأنبأني أنها توفيت.

صباح الغد، أفقت مستذكرا رؤيا منامية بدا لي فيها رجلا الأمس يتنافسان في الاعتداء عليّ بالضرب العنيف المبرح، فلم ينقذني منهما إلا خولة التي هددتهما بمسدس ففرا، ثم أخذت تضمد جراحي وتواسيني. وحين فرغت مددتني على فراش وارتمت في حضني باكيةً مستغفرة.

ـ 5 ـ

صباحَ يوم ربيعي، تلقيت رسالة من الأستاذ عبد الواجد الراجي يدعوني إلى بيته لحضور حفل للسماع الصوفي، وذلك ليلةَ موفى شهر رجب الجاري، أجبته بالقبول والشكر. كنت في الموعد فاستقبلني بالترحيب والحفاوة كفعله مع المدعوين، أغلبهم من الذين حضروا حفل تكريمه سيق ذكره. ومع بعض الأصدقاء القدامى تجاذبنا أطراف أحاديث طغت عليها ذكريات مشتركة وتوصيفات لما صرنا إليه. وحين حل وقت الابتداء، أخذ رئيس فرقة السماع في تجويد آيات من الذكر الحكيم، تلتها الأذكار ذات الطابع الصوفي مؤداةً من طرف الأعضاء، يشاركهم فيها مولى الدار بصوت جهوري، فيما المبخرات تبعث روائحها الزكية والخدم يرشون الحضور بماء الورد ويعرضون عليهم الشاي والمرطبات والحلوى. وبعد انتهاء الشوط الأول من الحفل مُدت موائد العشاء، والأستاذ يرحب ويدعو الضيوف إلى الإقدام عليها. ثم إنه خاطبهم مبتسما:

- هل أتاكم، يا سادة، حديث بخيل أوْلَمَ بعض صحابه البخلاء، فعرض عليهم صحنا يحوي دجاجتين كاملتين وأخريين

ناقصتين، فقال لهم: وصيتي إليكم يا قوم، أجهزوا على الجرحى من الدجاج واتقوا الله في الأصحاء.

وعلق ضيف من مائدة أخرى:

- وأنتم ترون بالحجة اللاقمة أن مولانا الراجي، حفظه الله، قائم على مذهب الكرام النبلاء وسيرتهم.

ووقف آخر وأنشد:

- ما الخصبُ للأضيافِ في كثرةِ / القِرى ولكنَّ وجهَ الكريمِ خصيبُ.

وأضاف غيره:

- ومولانا يجمع بين الحسنيين، الكرم الحاتمي وخصوبة الوجه.

وتعالت الأصوات بالتأييد والتزكية.

ولما رفعت الأيدي، جلس الكريم جنبي وقال بصوت مسموع:

- نحن في السياسة عندنا نعيش احتباسا خانقا، فالحمد لله أن يسر لنا التفويج عن الأنفس بمثل هذا الحفل المبارك، حيث ننعم بذكره تعالى وبالسماع الصوفي الذي يقوينا وينعش فينا وشائج المحبة والإخاء.

وصاح رجل من المائدة المجاورة:

- هذا زمن السكوت وملازمة البيوت، قاله الإمام سفيان الثوري. لكن معلِّمه الإمام أبا حنيفة ناقضه ووقف ضد الخليفة جعفر المنصور الطاغية الذي أمر بسجنه وجلده.

وعلق الأستاذ ومعه آخرون:

- أحسنت والله يا حنفي.

وأردف آخر:

- وكأني بك كأبي حنيفة النعمان تتأنق في ملبسك وتتعطر...

أما الشوط الثاني فكان تتمة للأول وعلى منواله، وخُتم بالوقفة التي تعالت فيها الأصوات بالإنشادات المؤثرة ثم بالأدعية لهذا البلد وعباده، وبعدها كان الفراق بالقبل والعناق.

في طريق عودتي إلى مأواي استخفني فرحٌ شفيف، وأنشأت أردد نشيد "طلع البدرُ علينا" كاملا.

*

بعد أقلّ من شهر مرّ على تلك الوليمة، دعاني الأستاذ إلى لقائه عشيةً صحبة اثنين من مقربيه سبق أن تعرفت عليهما. كان الداعي يبدو تعبا، يتكلم بصوت متهدج وحركات بطيئة. جاوز عقده الثامن، لكنَّ عينيه ما زالتا تلمعان بنور ذكاء وفطنة

وجراءة، ووجهه يشرق كلما ارتسمت على ثغره ابتسامة رقيقة جذابة. أحسست أنه ما دعا هذا الثلاثي إلا ليطلعهم على أمر مخصوص يعنيه في المقام الأول. والراجح أن للصاحبين الإحساس نفسه. قال بعد أن استوى في قعدته:

- أنا، كما ترون، قد وهنت صحتي واشتعل الرأس واللحية شيبا. أشعر أني دخلت طور الذهاب إلى ربي، آمنا مطمئنا... بفضل الله، أحسب أني لست من الذين يرون في الموت ذلك الثقب الأسود، يسودهم بامتداداته الشاسعة المتناسلة؛ يستمتع بإيذائهم والاستهزاء بهم، كما بتذكيرهم دوما بسلطته العظمى الماحقة. أما الذين يدرؤونه بشتى أنواع الخدع والتلهيات، فإنما يؤكدون، رغما عنهم، ضلوعه وسرطانه... ولا دعاء لي إلا هذا: اللهم قوّني على فراق الأحباب ونجِّني من ذوق الموت وطوقه مسبوقا بشر المرض والألم، إلا أن يكون هذا الشر امتحانا لي في مغالبته والصبر عليه.

تناوبنا نحن المنصتين في الدعاء للمتكلم بدوام الصحة والعافية وطول العمر وبقائه ذخرا لمحبيه، فيما هو يشملنا بنظرات عطف وتودد، ثم أضاف قائلا:

- أوصيكم أحبتي خيرا بالصداقة، لكن لا أيِّ صداقة، بل تلك التي تكون ذات جودة وجدوى. ولا تخشوا تجريب العزلة إن كانت طريقا للإبداع والإيجاد. فكما يقول الشيخ

الأكبر محيي الدين ابن عربي: *"من خلا ولم يجد فما خلا/ فهي طريقٌ حكمها حكم البلا"*. ولا تخشوها إذا كانت تفضي إلى لقاء المعتزلين ورقيهم... في مقابل الدولة العميقة المهيمنة تجدون مجتمعا نصفه أميون وأكثر من ثلثيه هم وشوق المعرفة المنمِّية على طرفيْ نقيض. وقد قال تعالى ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، وبالتالي لا يقرؤون ولا يفكرون، ولا طاقة لهم بالحوار النافع وبالتي هي أحسن. قاوموا إذن ما استطعتم هذا الوضع المريضَ الضار، لكن من دون أن تهملوا البحث عن أبدع الانفعالات الجمالية، ولا عن الانضواء في سبل أسباب التقويم والارتقاء... أخطأ من قال: الحب إعطاء شيء لا نملكه لأحد لا يريده. فالحب إذا انطبع في العقل والوجدان، فبدمِ الحياة يجري، وبنسغِ الصدق يُقال... أما من حبذوا الاعتزال حتى قبل الأوان، فاعذروهم إذا كان مجتمعهم، من حيث معيشهم وتقديرهم، ينمّي منسوب تلوث ذهني وسقمٍ ثقافي حادّ وجهالاتٍ متعددة الأشكال والأبعاد، فيكون الخلاص في النزوع بالفكرِ والحساسية إلى مراتع السّعة والهواء الطّلق المطهِّر والعزلةِ الذكية اليقظة. ففي خيارهم هذا، والحالة تلك، تثوي سبلُ اتقاء العبثيات والغباوات الزاحفة، ويكمن الجنوح إلى الأحقِّ والأجملِ والأعدل، والتمثلِ بالسابقين عليهم، الذين ذهبوا تاركين بصماتٍ وآثارا رائقة مؤثرة، تشهد أنهم

أعطوا للحياة ما يرفعها ويقوّيها، فما ماتوا هباءً وسدى.

توقف الأستاذ لحظة يسترد أنفاسه، ثم استأنف:

- وبالتالي، ليس علينا أن نلوم فنانا أو كاتبا أو فيلسوفا أو صوفيا على اعتزالهم في بروج عاجية، لكن في المقابل لنا أن نعرض عنهم إذا لم تتمخض عزلتهم عن أيِّ شيءٍ شيّقٍ ثمين، ولم يخرج من بروجهم ما يُعجبُ النفس والعقل، ويكون ويبقى من بعدهم تحفا نيّرةً للأحياء المتأملين. وأما من وهنت وساءت علاقتهم بأنفسهم وبالغير، وهم كثرٌ، فتراهم يقيمون تحت قبابِ العزوف عن الشؤونِ والهموم، الإنسانية والثقافية منها والعامة. وهكذا يمسون محتمين بمربعاتهم وحيطانهم، داخلين أفواجا أفواجا في "أسواق رؤوسهم"، مصابين بتلاشٍ باطنيٍّ وانكماشيةٍ صماء وانعزاليةٍ عقيمة جدباء، كما لو أن سنواتٍ جليدية أو أثقالَ جاذبيةٍ سالبة أدّت إلى خصيهم وضربهم بالرهبة والضمور. إنهم إذن لمنطفئون! يصحُّ عليهم وصف أبي الحسن الششتري رحمة الله عليه: *"افهموا ذي المقاصدْ/ يا أُهيْلَ الإراده// إنَّ من ظلَّ قاعدْ/ كيف تكنْ لو سيّاده// السعود للمجاهد/ وله الحزق عاده...*

لاحظت أن الصاحبين يدونان كلام الشيخ، فنهاهما عن ذلك أول مرة، ثم قال: لا عليكما، وتابع:

- إن كان في شذراتي نفع، ولو لبعض الناس، فلنرجئ النسخ النهائي إلى وقت آخر، إن شاء الله، وذلك ابتغاء إضافته إلى ما سبق لي نشره من قبل في حقب متقطعة متباعدة.

كأن كلمته هاته كانت إيذانا برفع الجلسة. فقمنا نحن الثلاثة مودعين، إلا أن الأستاذ أبى إلا أن يستبقيني، فدعاني إلى القعود جنبه وقال:

- العيون، يا يقظان، نوافذ الروح. وأنا ألحظ من نظراتك أنك تنطوي على حزن يتسع كلما ازددتَ معرفة ووعيا. وهذا لعمري حال المكلومين وجرحى الحياة... تراني أخطأت؟

- بل أصبت المحز، يا سيدي.

- وممّ ينوء به صدرك؟ لا تجبْ إن كان في سؤالي ما يحرجك.

- جوابي قد يطول، ولا حق لي في وقتك أكثر مما أخذت. لكن بإيجاز شديد أقول: منذ فقدت زوجتي وبنتي اعتراني انتكاس نفسيّ قاسٍ نزعت إلى مغالبته بمحاولة استرجاع قدرتي على الكتابة والإجادة فيها، كما كان حالي قبل مصابي ذاك؛ إلا أنها باتت لا تزداد إلا عصيانا وعقما. وتولّد عن هذا شعور بالقلق والفراغ يحتد حين أخلو إلى نفسي، ويخف قليلا كلما سلوت ولهوت... هذا كل ما في الأمر، وإني أفعل جهدي للنهوض من كبوتي وعلاج حالي.

تفرسني الأستاذ بنظرات فاحصة وقال:

- احمدِ الله على أن احتقانك لا يدخل في جملة الأمراض العضال، بل إنه مع كرور الوقت سيهون، إذ ستسترجع مقدراتك إن كانت مركوزة في تكوينك. ومع وجود الفارق، لا تنس أن تتأسى بنبينا الأكرم عليه السلام حين انقطع عنه الوحي، فحزن واكتأب، إلى أن نزلت عليه سورة ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ الآية. وما كنت لأقول لك هذا لو لم أطلع على بعض كتاباتك أيام كنت بقلمك تصول فيها وتجول. لكن يستحسن على أيّ حال أن تؤمّن حياتك العاطفية وتسعد بالحياة. اصبر وثابر وانتظر الثمرات والمحصول...

كان كلام الأستاذ يغشاني دفئاً وسلاما، فاستأذنته في الانصراف، شاكرا إياه على اهتمامه ونصحه.

لم يمض على ذلك اللقاء شهران حتى فُجعت بنعي الأستاذ الراجي الذي وافاه الأجل المحتوم على حين غرة وكما تمناه، فلم يألم أو يطل به لزوم الفراش. وقد أقيمت له جنازة حاشدة مهيبة، شيعه فيها إلى مثواه الأخير خلق كثير. وفي ذكرى وفاته الأربعينية ساهمت في حفل تأبينه مع ثلة من صحابه ومحبيه.

*

ظل تسربي إلى الأوساط الغيرية يعرف مدا لا بأس بوتيرته وغلاله. فهذا عزيز وهذا عدنان اللذان جمعني بهما الراحل الراجي يصبحان من أقرب أصدقائي، الأول -مهندس زراعي- يهيب بي للمشاركة في ندوات ينظمها موقعه الإلكتروني "الصلصال"، والثاني -موظف في المكتب الوطني للسكك الحديدية- يحفزني على إلقاء محاضرات على السككيين ونقابتهم. صرت، كلما استطعت، ألبي دعواتهما، لكن من دون أن أفرّط في الخلوة بنفسي بما لها وما عليها. وفي هذا المد والجزر وجدتني ماسكا بناصية توازنٍ لا يخيب، مكنني إلى حد مّا من استحلاء الحياة وتبويئها الصدارة، كما كنت أفعل في زمان ولّى؛ فأخذت أنظر إليها كمعينٍ متع ومسرات، إن لم أقتنص ما تيسر منها تضيع مني وتروح سدى. يحضرني أمامها ما قاله هيبوقراط في أول شذرة من كتاب قَسمه: *"الحياة قصيرة والفن مديد"*، وأعضُدُها بحكمة لسينيكا: *"عندما ينسى الناس الماضي ويهملون الحاضر ويخشون المستقبل، فإن وجودهم يكون غاية في القصر والاضطراب"*.

لا حكم لي على وجودي ولا سلطان، لكني لا أريده منذ اليوم أن يكون بؤرة للاضطراب. الاضطراب الوجودي الحادّ حين يحلُّ بإنسان، فقد يفقده الوجهة والبوصلة، فيتيه في بيداء مجدبة لا أوَّلَ لها ولا آخر، حتى إذا نفد زاده مات عبثا

وافترست جثَّتَه الحيوانات آكلة الجيف أو جحافل الديدان، والعياد بالله.

فيا معينَ المتع والمسرات، عد إلى دفقكَ المبارك تجدْني مرحِّبا متلقيا، تجدني كمن ينشد البواكير والنشأة الأولى والطاقة المتجددة. وها إني أمد ذراعيّ واسعا للضم والتعنيق، ولاجتناء ما يسُرُّ النفس ويقوِّمها بما في هذي الدنيا يعلي ويُعِزُّ.

ـ 6 ـ

لا هاتف من نوال، فلا ريب أنها منشغلة بمحنتها دون سواها، تدبر أمرها حسبما ترى وتستطيع. وإني أتمنى لها صادقا أن تنتصر على خصيمها اللدوذ وتعود إليَّ مخلَّصة من براثين الحياة الآسنةِ السيئة وعنفها الشديد. إن صدق حدسي وقُيِّض لي أن أكون سندها وحاميها، فستكون بدورها عمادي ومنقذتي، فانفراج كربي رهين بانكشاف أزمتها. ولا شيء يعوق هذا الصعود إلى الحلِّ الأحسن إن قويت إرادتنا وصمدنا وصبرنا للدفع بالقدَر نحو اللين والاستجابة، فتظهر الغائبة من جديد بجسمها البهيِّ الرشيق ووجهها المشرق الخصيب. سأظل في انتظارها على أحرَّ من الجمر، أعدُّ الزمن بنبضات قلبي ولا ألهو عنها إلا غرارا.

على شاشتي طالعتني رسالة من الصديق عزيز يدعوني للمشاركة في ندوة عنوانها: هل الاستعمار جريمة ضد الإنسانية؟ قبلت الدعوة، فبعثت له ورقتي المختصرة في الموضوع، تناقلتها بعض الصحف والمواقع، وجاء فيها:

«إذا كان احتلال إسبانيا والبرتغال لمستعمراتهما في إفريقيا وأمريكا الجنوبية خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر قد قام بشكل واضح مفضوح على الغصب والنهب المنهجيين، فإن الاستعمار الإمبريالي المعاصر كان مصرا على التقدم من وراء أغطية ذرائعية، وفي كل الأحوال عبر قنوات خطابات إيديولوجية تتمايز من حيث درجاتها، ولكن ليس من حيث طبيعتها، وتنبني جميعها على ركن ركين: تفوّق الجنس الأبيض الأورو-أمريكي على من دونه من الأجناس الأخرى، وبالتالي ادعاء تملك حقٍّ في الهيمنة على الشعوب الجنوبية والشرقية من أجل، كما يزعم، تأدية رسالته التاريخية في تهذيب العالم المتخلف وتمدينه...

«إن الجزائر، على سبيل المثال الدال، كانت طوال 132 سنة تُسخَّر تحت الاستعمار الفرنسي الاستيطاني كمختبر ضخم لتفكيك شخصيتها التاريخية والثقافية وإعطاب نوابضها الذاتية ومقوماتها السيادية. فلم تأخذ في تضميد جراحها ولملمة شعثها إلا خلال الخمسة عقود ونيّف من استقلالها. وهذا ما حدا بالدولة الجزائرية والمجتمع المدني والمثقفين من ورثة فكر الأمير عبد القادر والشيخ بن باديس إلى الطعن في المادة الخامسة من قانون 23 فبراير 2005، التي تسجل للاستعمار الفرنسي فضائله وإيجابياته، وصادق عليها برلمان فرنسا بغرفتيه،

فلم تُسحب إلا بتدخل من الرئيس جاك شيراك مستندا إلى المجلس الدستوري؛ وبعد ذلك أتت مواقف قوية للرئيس بوتفليقة باسم الدولة والشعب، منها تعليق التوقيع على معاهدة الصداقة الفرنسية-الجزائرية، ومنها اعتبار الاستعمار الفرنسي حركة إبادة جماعية ضد هوية الجزائر وثقافتها، ثم مطالبة ساسةِ فرنسا بالاعتذار العلني عن جرائم استعمارها، تتصدرها في 8 ماي 1945 مذبحة سطيف الرهيبة في حق جماهير من الناس خرجوا للاحتفال بانتصار الحلفاء على ألمانيا النازية، وكان لمجنديهم فيه دور مهم، وكذلك لمطالبة فرنسا بالوفاء لعهدها القاضي بتخويل الجزائر استقلالها ما إن تضع الحرب العالمية الثانية أوزارها؛ إلا أنها أخلت بالعهد، ثم امتنعت سلطاتها عن تقديم أي اعتذار حتى اليوم، مؤيدةً في موقفها هذا من طرف الأرجل السود و"الحرْكيين" واليمين المتطرف... أما في المغرب، فقد نزعت وقتها لوبياتُ فرنسا المحلية في مجالات المال والأعمال والصحافة والثقافة إلى اتخاذ موقف الممالأة بل القبول إزاء تلكم الإيجابيات والفضائل المزعومة، متذرعين بكون المغرب، على خلاف الجزائر، لم يعرف من طرف القوات الفرنسية إلا حماية لا استعمارا، وزكى هذا الطرح المنزوع السيادة مثقفون فرنكوفون إما كتابةً أو في حلقاتهم ومنتدياتهم. والحقيقة التي لا مراء فيها أن المغرب

كالجزائر وبلدان إفريقيا الغربية والوسطى قد عرف أيضًا استعمارا ليس أقل ضراوة وإجراما... فكيف لا أؤكد في هذا المقام على وجوب الاعتناء بأدبيات تصفية الاستعمار في الستينيات؟ ومنها: *خطاب في الاستعمارية* لإيمي سيزير، *افتقاد العالم* لجاك بيرك، *تغريب العالم* و*كوكب الغرقى* لسيرج لاتوش، وكذلك *الكتاب الأسود للاستعمار*، المؤلف الجماعي الذي أشرف عليه المؤرخ الفرنسي مارك فيرو، وسوى ذلك».

*

ها إني إذن أتقدم في الألفة والأنس مع الغير! أتخير منهم المناسب والأسلم. وحسنا فعلت إذ نهجت، مع ذلك، سلوك التأرجح بين الخلطة والخلوة، فأخذت في الأولى بالعشرة واللقيا مُعملا معيار الأجدى والأجود، وجنحت مع الثانية إلى حقي في مناجاة نفسي ومجالستها في حضرة السؤال والفكرة. إخال أني، وقد توسطت واعتدلت (وإن لأجل لا أدريه)، شرعت أهفو إلى إيقاظ قلمي الإبداعي من سباته العميق، إلا أن صوت الحكمة أهاب بي أن لا أعجل بالقلم وأن أتريث. هذا ولو أن الفصل الجاري هو الربيع بكل ما يعنيه من فتنة وعرس في الطبيعة بأرضها وسمائها وطقوسها. لذا، الأحرى بي أن أعمل بنصح ذلك الصوت، سيما وأن نصيبي من الغنائية والرومانسية ليس بعدُ مدعاة للاعتزاز والفخر. ميلي الأبرز

والماسكُ بي هو إلى الطبيعة الإنسانية وما تحفل به من الأفراح والأتراح، ومن الملاهي والمآسي. هنا أكون كالسمكة في الماء، ألحظ وأصف، أحلل وأركّب، لكن شريطة أن أُلهَم وأُبدع.

*

فكرت في بعث إيميل لنوال أعلمها أني بتُّ ميالا إليها ومستعدا أكثر من قبل للدفاع عن حوزتها وحقوقها والوقوف إلى جنبها ضد زوجها الجائرِ المناور. لن أسرَّ إليها أبدا، ولو رمزا، بكون سبب ميلي وموقفي يكمن أيضًا في شبهها الخِلقي بنجاة حرمي المتوفاة، فهذا قد يجرح كبرياءها وينقِّص من قيمتها الذاتية. لكني في المقابل لن أذخر جهدا لإشعارها بكونها أمست حدثي وشغليَ الأبرز. هيأت للرسالة عناصرها ثم حررتها محفَّزا بكثير من الحماسة والشوق. لكنْ ما إن أتممتها حتى بدا لي من الأنسب تأجيل إرسالها. وحسناً فعلت، إذ في الغد وصلني منها ظرف مختوم من دون طابع بريدي، مما يدل على أنها وضعته في صندوقي. حين اطلعت عليه إقتنعت أن بعلها ما انفكّ يساومها في التنازل عن حضانة بنتها مقابل نيل طلاقها. وقالت إن له اليد الطولى في دوائر البوليس وحتى القضاء، وإنها غيّرت وكيلها بعد أن اكتشفت تواطؤه مع محامي زوجها. وفي الختام ترجتني أن أظل بعيدا

عن أمرها إلى أن يظهر حل لصالحها تنبئني به.

قطعت الشك باليقين أن المرأة تُرصد حركاتُها وسكناتها وتوجد في موقف عسير، فكيف لا ألبي رجاءها فأنأى عن شأنها وحماها. يكفي أننا حين زارتني ليلا منذ مدة نجونا بأعجوبة، إذ سها الشيطان عنا والرقباء، وإلا لكانت الفضيحة وكنا ضُبطنا في حالة تلبس، وصحت علينا تهمة الزنى، ولضاع من نوال حقها في حضانة ابنتها... هذا وإن شعوري بالعجز عن إنقاذ امرأة تتعذب أيقظ في صدري ورأسي نغل حشراتي السوداء ودبيبها، حشراتي القديمة التي أستطيع الآن، رغم الرواسب المعيقة، تطويقها وطردها بفضل ما تقوَّمتُ به وتقويت.

*

التقيتُ الصديق عزيز في مقهى، تخابرنا بما يفيد معرفتنا بوسطنا السياسي، وتوافقنا على أنه يدور في حلقات فاسدةٍ عقيمة؛ ثم إنه أعلمني أن مقالتي عن الاستعمار كجريمة ضد الإنسانية التي نشرها في موقعه أثارت تعليقات جد إيجابية في معظمها. والتمس مني أن أصف أهم ما أعتبره من عقابيل الاستعمار وتبعاته في حياتنا الحديثة. وعدته بأن أنظر في الأمر، ثم عرجنا على الكلام في وصية المرحوم عبد الواجد الراجي التي عبَّر بها عن رغبته في وهب مكتبته للخزانة العامة بمسقط رأسه تطوان. وأكد لي الصديق أنه اتخذ كل الإجراءات

اللازمة لإيصال الهبة وتدشين الجناح الذي سيضمها باسم الراحل، وطلب مني تشريف الحفل بحضوري وإلقاء كلمة بالمناسبة. وكذلك كان بعد شهر مضى على لقائنا.

أثناء التدشين سألت عزيز عن سبب غياب عدنان وهل هو بخير. أجاب أنه يكون كذلك لولا انشغاله بحالة زوجته الصحية التي تمنعه من المداومة على اللقاءات وحضور الأنشطة. ولم أعلم بطبيعة مرض المرأة إلا حين دعانا الزوج لعشاء في بيته، إذ اعتذر لنا عن عدم حضورها بسبب إصابتها بالباركنسون واضطرارها لمحاولة النوم المبكر وأخذ قسط من الراحة. عبرت له عن أسفي ومتمنياتي لها بالعافية والشفاء. هي ذي إذن علة اتشاح وجه الصديق بحزن كاسح دفين وبميله إلى الانكفاء على نفسه. ساد صمت بيننا فكسره عزيز قائلا:

- ليس عليك يا أخي عدنان أن تعبأ بمن يتهمك بإبقاء حرمك حبيسة المنزل وإبعادها عن الأنظار، مع أنك تدعو إلى تحرير المرأة والندية بينها وبين الرجل.

فردّ المخاطب بصوت شجي:

- حتى بعض النساء يسهمن في الإشاعة المغرضة وقذفي بالباطل. فهل يجوز فتح بيتي لهن وإطلاعهن على حقيقة الأمر؟

أجبت على الفور:

- طبعا لا يجوز، كما لا يجوز شغل بالك بالترهات والسفاسف.

فقال وهو يصطنع الهدوء واللامبالاة:

- معك حق يا يقظان، كل ذلك يهون، سيما حين أرى كلثوم تقاوم داءها بالصبر والصلاة، وتدبر متاعبها الصحية الأخرى.

حول مائدة العشاء التي أعدتها الخادمة، غيرنا مجرى الحديث، فذهب بنا كل مذهب في شؤوننا الوطنية والعربية؛ لكن ما فتىء طيف الراحل عبد الواجد الراجي أن هيمن علينا، فذكرناه بكل خير، وذكّرنا ببعض آماله المجهضة، وكان لعزيز في هذا الشق قصب السّبق، إذ قال:

- كان من آمال الراحل أن يشرف على مؤلف جماعي بالفرنسية عنوانه *L'Islam par les nuls* أي الإسلام بأقلام صفرية للردِّ بأقصى ما يمكن من الدقة العلمية على زُمر من أدعياء الكتابة في الشؤون الإسلامية. وغاية المؤلَّف أن تُنشر أخطاء هؤلاء ومعاطبهم، وأن تُعرف عندهم مكامن الإخلال بقواعد الإحاطة المعرفية والتحصيل الضروري، سواء كانوا من العرب أو الأوروبيين، فبقيت دعوته من دون ردود واستجابة.

أضاف عدنان:

- والله لقد شعرت مرارا بالأستاذ يألم لاكتساح الحرف اللاتني في كل فضاءات مدننا ولغلبته على الحرف العربي الذي لم يعد له من مكان في الألواح التجارية إلا ما ندر. وكل المقالات والعرائض التي نشرها للتنديد بهذا الخلل وشجبه ظلت حبرا على ورق وعبارة عن صيحات في واد. وكان بمنتهى المرارة يتساءل: هل أمسى خاصة المغاربة وحتى شرائح من عامتهم يعيشون في سهو آثم عن ذلك الشأن وغيره، مفرطين في هويتهم اللغوية وأصالتها، مضحين بأحد مقوماتهم الحضارية على عتبات الاستلاب والتبعية؟

وعاد عزيز قائلا:

- وعطفا على ما ذكرت، كان المرحوم من أشد المعارضين للفرنكوفونية التي يعتبرها نظام افتراس لغوي، غايته تقزيم اللغات الوطنية وسلبها من أي ذاتية وسيادية. وهنا كم كان يستفحش كون فئات ولوبيات محلية يتواطؤون معها ويصيرون من خدام أركانها ومراميها، ومن العبيد الطيِّعين الخانعين...

أدليت بدلوي من باب الشهادة فقلت:

- أذكر من جهتي أن المغفور له فاتحني يوما في اقتراحه القاضي بتأسيس ما أسماه "قطب المتميزين" في شتى المجالات،

العلمية منها والأدبية والرياضية وفي ميدان الأعمال والاستثمار؛ قطب تكون غايته ضرب المثل وإظهار القدوة، وذلك من خلال زيارات يقوم بها أعضاؤه إلى سلكي التعليم الثانوي والعالي وأندية الشباب وجمعياتهم، فيعرضون سيرهم الذاتية وتجاربهم... أتذكر أني وافقته الرأي وتحمست له، غير أن الرجل لم يجد آذانا صاغية ولا سواعد منفذة.

وفيما استمررنا في جرد آمال المرحوم المجهضة إذا بصوت من قعر الدار يستصرخ عدنان أن يقبل، فقصد عزيز باب الخروج مسلما وفعلت مثله. وحين جلسنا في مقهى، أنبأني أن ذلك الصراخ هو للزوجة اشتدت حاجتها إلى شيء مّا.

في طريقي إلى مسكني، تخيلت أن فيه زوجة افتراضية، زوجتي، يدرجها مرضُها العضال ضمن جماهير جرحى الحياة حتى الموت، تستصرخني مستغيثة أن أقلل من أوجاعها الفادحة، فما عساني كنت أعمل سوى لقمها بالمخدرات رجاةَ أن تنام ما أمكنها النوم، وتهدأ في انتظار أن توقظها الآلام، فأضطر إلى إسعافها بشحنة أخرى من الكورتيزان. ووقتها سأتوجه إلى الربِّ باسمها صائحا بأن جهنم توجد هنا والآن وأنها هي الأفظع والأقسى، إذ الأصحاء في جيرة المرضى وحضرتهم ينالون هم أنفسهم نصيبهم منها. أقول هذا على توهم، لكني قد رأيته رأي العين وكابدته وقت كانت أمي على

فراش السرطان والاحتضار. ولو كنت أعاقر الخمر، كما في الماضي، لسكرت اليوم حتى الثمالة كيما أنسى ما افترضت، وأنسى أكثر أن لا حجةَ في ذلك العذاب ولا حكمة. فلا أقلَّ من أن أكون في حميّة من الغضب والثوران، تجنبا لنوبة احتقانية بليغة.

لما حللت بمنزلي بادرت إلى تحية الصمت المخيم عليه، وشغّلت تحفا من الموسيقى الكلاسيكية، بدءا بأماديوس موزار الذي تتحول لحظات الصمت في سمفونياته إلى موسيقى، فبفضله لم اعد أستثقل الصمت وأضجر منه، كما بفضل نزوعي الجديد إلى التحرر ما استطعت من أذران هواجسي ووساوسي. لا أدعي أني في هذا أدركت المنتهى أو نقطة اللارجعة. فأنا أعلم بالتجربة والاستقصاء أن كل انفراج إذا لم يسد ويتجذر قد يعقبه شدة وانتكاس. فحذارِ حذارِ من كل زهوٍ واغترار، وعليَّ باتخاذ نمط حياة يتقوم بنحت الذات في ضوء قيم رافعةٍ إسعادية، كما لا شك يرى صفوة الحكماء، ومنهم باروخ سبينوزا الذي ختم كتابه الأم *الإيتيكا* بالقول: *"كلُّ ما هو جميل صعب بقدر ما هو نادر"*.

حين توقفت الموسيقى استسلمت لنوم تبدى لي عند الاستيقاظ خلوُّه من أيِّ كابوس وأي قلاقل. تناولت فطوري المعدِّ بيديْ عفراء، طالعت جرائدي، نظرت في علبة الإيميلات،

فلم أجد فيها ما يستحق العناية. قصدت نادي الرياضة، وبعده ارتأيت أن أهب يوميَ الخريفي هذا للقراءة ولا شيء سواها، بدءا بكتب لبثت زمنا في رفّ أسميه رف المستعجلات. بدأت بإحدى روايات جاك أطالي وهي *رابطة اليقظين* على رأسهم ابن رشد وابن ميمون، لكني أهملتها إذ لحظت أن صاحبها يخلط ما بين المرابطين والموحدين، ويسبغ على هؤلاء ما عُرف به أولئك من تزمت وتسييد لحكم الفقهاء الفروعيين. فلم أستسغ أن أجوّز لأطالي ما لا يجوز لغيره في مجال المعرفة الصحيحة والمعلومة الدقيقة. إني لست ممن تنطلي عليهم الشهرة كعربون استحقاق أو عصمة... وأفيد من تلك الرواية وأنفع ما وجدته في *قاموس الكلمات الفرنسية من أصل عربي*، وهو عمل معجمي جادّ للباحث الجزائري صلاح چيرميش، يعرض فيه الأربعمائة كلمة عربية استعملت طوال عهود وما زالت تستعمل في اللغة الفرنسية، الشفوية منها والمكتوبة، وذلك في حقول شتى، منها العلمية (الفلاحة والغراسة والفلك والطب والرياضيات والصيدلة)، ومنها المتعلقة بالحياة العامة واليومية. وفي جرد تلك الكلمات يقدم المؤلف حصيلة معتبرة مرتبة أبجديا وينهج في عمله الشاق والممتع طريقة عرض الكلمات الفرنسية وأصولها العربية، متوقفا عند معانيها اللغوية والاصطلاحية، مدللا على تلاحمها وتطابقها من خلال الأمثلة

التداولية، كما في تضاعيف كم هائل من المعاجم والقواميس والنصوص الأدبية من فرانسوا رابلي إلى الروائي المعاصر ميشل هولباك... ويتميز القاموس بقيمته التربوية الإستثنائية، وذلك لكونه يُظهر بالحجة المادية عبر قصة كلماتنا العربية المسافرة أن العلاقات العميقة والخفية بين الثقافات لا تقوم بالصدام والتنابذ والتنافر بل بالتلاقح والتناسل والتمازج كما بالتأثر والتأثير المتبادلين...

وبعده انكببت على كتابة ما بتُّ أستسهله، أي الأشعار وخصوصا المقطّعات والشذرات المرسلة، وهي دون الهندسات السردية وأنفاسها الطوال المعمقة، التي ما زلتُ أعجز عنها وأستوعرها. وطرأ لي يوما أن سجلت شذرة ما عتمت أن نسبتها لابن خلدون، ثم بدا لي غيرُ ذلك بموجب حداثة بعض مفرداتها، وهي: "متى احتقنت العبقرية وتعطل الطموح وحبطت التطلعات، توارى النور وتلاشى الرجاء وهيمن الأموات على الأحياء...". فما كان مني إلا أن رددت القولة إليّ. ومثل هذا الشيء الغريب حدث لي في فقرة يتيمة وجدتها مندسة في إحدى كراساتي. سألت من حولي عن قائلها فلا من مجيب، تقول: "يومَ شفاهتني وعن الفجر والماء حدثتني، كانت في صحرائيَ موّالَ سعدٍ وانبعاثٍ، كانت الفجرَ ملّفاً والماءَ الزلال في عروقي. أدعوها الغيثَ والرزقَ الوافرَ والكلَّ

لحظةَ الكلِّ، أدعوها الطّيرَ الناريَّ والحقلَ الثريَّ، أدعوها دمي حين أفتحُ صدري لشعبي، فأغدو لأشجار الغلال والمسكِ علامة.

*

لم يصدني عما كنت فيه إلا مكالمة من عزيز، يريد استشارتي في أمر مستعجل، فدعوته للغداء. وحين أقبل فاتحني في حالة عدنان المستفحلة سوءا، قال:

- يعز عليّ أن أرى رفيقنا يتخبط في مشاكل عويصة، له في إثارتها نصيب من المسؤولية.

سألته قلقا:

- ما هي يا عزيز؟ خبّرني.

- هذا الصديق لا يمكنني تركه وشأنه، تزوج فتاة تصغره سنّا، أظن أنها من بنات الهوى، تعرف عليها في ملهى ليلي وتحصَّل من أجلها على تقاعد مبكر حتى يتفرغ لتلبية مطالبها ورغباتها الكثيرة... المشكل الأخطر هو أنه أسكنها في بيته وأخرج منه زوجته المريضة لإدخالها إلى مصحة...

سألته مغتاظا:

- وقبلت الزوجة بذلك؟

- المسكينة لا قوة لها ولا حيلة... وما زاد في الطين بلة أنه تمكن من الحصول على طلاقها بدعوى إعاقتها وعجزها، وكان هذا ضمن شروط أملتها عليه الزوجة الجديدة، كما شرطت عليه تمليكها الدار بما فيها، فقبل وأذعن، كأنما نوع من السحر أصابه.

- وضع مأساوي حقا! وهل استمعت إلى رأيه فيه؟

- الرجل تغير رأسا على عقب، وأنا معه في حيص بيص. لا ينصت إليّ ولا لنصحي. هذا ولا أظن أنه سعيد في زواجه الثاني، إذ أمسى يعاقر الخمر طوال اليوم، والنرفزة صارت طبعه المركوز... أغثني برأيك يا صديقي.

أطرقت مفكرا ثم قلت:

- هل للزوجة المطلقة أهل؟

- لا أولاد وإنما أبوان وبعض الأقارب...

- كلامي قد ينطق به أي محامٍ يوكل له الدفاع عنها... يُجري عدنان عليها النفقة ويكتري لها شقة ويؤدي مستحقات المصحة، فإن قبل عن طواعية فذاك...

- عرضت عليه بعض ما قلته، فرفض وأمرني بنفض يديّ من شأنه والابتعاد عما لا يعنيني.

- إذن لزم رفع دعوى عليه.

- ومن أين للداعية بأتعاب الدفاع؟

- كلها على حسابي.

- بل نتقاسمها يا كريم... والله قد غلبني البكاء حين زرت المغلوبة على أمرها مرتين في منزل أبويها. حالتها تقطع الأكباد، رعاشها استفحل بسبب مأساتها مع عدنان، ثم إنها لا تعرف ما تقدم وتؤخر، ولا كيف تواجه ظلم زوجها وتجبّره. والداها عجوزان مصابان بداء آخر هو الهرم، وسائلهما جدّ محدودة وحبلهما غاية في القصر.

- راجع صاحبنا مرة أخيرة واخطب وده وتفهمه، فإن تاب عن غيه فذلك ما نبغي، وإلا فالحل بيد المحكمة.

- سأفعل وإن كنت قليل الأمل... من بعد أخبرك بالنتيجة.

- تصرف كما تحسن التصرف، وأنا على ما وعدتك به.

قام الصديق فشيعته إلى الباب مودعا.

بعد خروجه، فكرت في الأعداد الهائلة من المطلقين ومن هم على عتبة الطلاق بملفاتهم المتراكمة على رفوف المحاكم؛ فكرت كذلك في سيّئي العشرة من الأزواج. معهم جميعا نكون بمحضر حشود جرحى الحياة، ونقف على تراجيديا الوجود ورجّاته الموجعة. وبغض النظر عن أرقام

الإحصائيات، هناك ما هو أفدح وأعتى، أي المعيش والمعاناة عند خريجي البلايا والشقاوات.

بعد مضي أقل من شهر، أنبأني عزيز أن مساعيه الحميدة لدى عدنان باءت كلها بالفشل، وأن رفع دعوى عليه، كما نصحت، بات ضرورة لا بديل عنها، لذا فإنه أوكل القضية لمحامٍ من معارفه موصوف بالكفاءة والنزاهة.

في متم الأسبوع الجاري صاحبني عزيز إلى منزل مطلقة عدنان السيدة طاهرة ووالديها. عاينت اضطراب المرأة وشعورها الحاد بالانقهار. رحبت الأم بنا أيما ترحيب وشكرتنا بحرارة على اهتمامنا وكرمنا، وفعل مثلها زوجها بصوت متهدجٍ منهك. أخذتُ أرقب من طرف خفي رعاش المرأة، فتبينت أنه ساء، إذ يُحدث لها صعوبة في الكلام والنطق. فهمت مما قالت الأم أنها وزوجها لم يعد لهما من دعاء إلا أن يرأف الله بالمريضة. طمأنتها أن الشدة بعون الله ستزول بالتي هي أحسن. أيدني الصديق بعينين محمرتين، وأكد للثلاثة أن تكاليف الدعوى لن تكون على حسابهم. مكنتُ الأب من ظرف مالي وقلت: هذا يا حاج ديْن ترده إن تيسرت الأمور وأطال الله في أعمارنا جميعا، وإلا فهو هبة مجزاة في سبيل من بيده الموت والحياة... وبعد ذاك قمنا فقبلناهم وانصرفنا تتبعنا أدعيتهم الحارة.

حول طاولة عشاء بمطعم، أعلمني رفيقي أن حالة عدنان تسير من سيئ إلى أسوأ، كما عاينها في آخر لقاء قصير جمعه به. إدمانه على الخمر تجاوز الحد، هزال أصاب جسمه وشحوب بالغ بادٍ على محياه. أخبره واحد ظل بصلة معه أنه يستلف المال ولا يرده، وأن الصحاب من حوله ينفضون.

بفضل المحامي صديق عزيز، واسمه إدريس التيجاني، كان النطق بالحكم الابتدائي، بعد خمس جلسات، لصالح السيدة طاهرة، ولم يحظ المدعى عليه بحق الاستئناف، إذ أن وكيله فوته عليه لتقصيره في أداء المستحقات. أما تنفيذ الحكم ذاك فقد اصطدم بعقبة كأداء تمثلت في ثبوت عجز عدنان عن الاضطلاع بالنفقة وواجبات المصحة وكراء الشقة. وسعى محامي المدعية بعد شد وجذب إلى الاكتفاء بطلب النفقة في شكل مبلغ جزافي، فلم يفلح بشيء.

الظاهر إذن أن معين عدنان المالي جف بسبب انحرافه وزواجه العبثي، وبالتالي لا يبقى، حسب القانون، إلا الإكراه البدني والحكم بالسجن. وهنا ارتأت حكمة السيدة طاهرة وطيبتها التنازل عن الدعوى والإلجاء إلى عدل الله وقصاصه. كما أن أريحية الأستاذ التيجاني قضت بالاعراض عن تسلم تعويضاته. ومن ثم نشأت بيني وبينه مودة وصداقة، فصرنا مع عزيز نشكل ثلاثيا وثيق الصلات والقرب. والحق أني استبشرت

بالأستاذ خيرا، إذ انقدحت في ذهني فكرة عرض قضية نوال عليه ملتمسا منه توليها. شاورت عزيز في الأمر فبارك وشجع، ودعاني وإياه إلى عشاء في بيته من أجل ذلك وأيضا لتعريفي بزوجته. وكذلك كان، إذ مرّ الكلام في موضوعي الأثير سهلا سلسا، فتطوعت ربة البيت للقاء الست نوال وتيسير مقابلتها مع وكيلها الجديد، ثم استأذنت في الذهاب لرعاية ابنها وأبيها العجوز، وودعتنا متبوعة بالتحيات والتشكرات.

ظللنا نحن الثلاثة نتكاشف حول مساراتنا واختياراتنا، ثم تناقشنا في قضايا ذات صلة بالسياسة والعدل، وكانت للأستاذ المحامي اليد الطولى في الحديث عن أحوال القضاء وبؤر الفساد فيه، فلا يتكلم إلا بالتواريخ والحجج المادية، ويرصد ويصف بعيدا عن ثنائية التفاؤل والتشاؤم وصورة نصف الكأس المملوءة أو الفارغة. ومما قاله: «إن التحدي الأكبر الذي يجب رفعه هو مغالبة الفساد طيَّ تخفيه ولامرئيته، أي حين تصير الرشاوى من الحجم الكبير وناتجة عن توافقات بين فرقاء متنفذين، ما زالوا وطيدي الصلات باقتصاد الريع والإقطاع، وهم متعبدو المناصب المعبرية ومحترفو السطو عليها بشتى الطرائق والوسائل المفضية حتما إلى إفساد العملية الانتخابية والديمقراطية نفسها. العدل، كما يقال ونُقر، أساس الملك، إذا اختل ذاك، تضعضع هذا وتدهور». باركت فكرته الصائبة

هاته وأثنيت عليها، إذ أنها وافقت ميلي وطبعي... ولما حان وقت الانصراف، تواعدنا على لقاء جديد للنظر في الحادثات وما يجدُّ في أمورنا المشتركة.

توثقت علاقتي بعزيز أكثر فأكثر إلى حد أني بحت له بما أشكو منه: عقمي أمام الصفحة البيضاء، كما سبق الخبر عنه. في البدء أبدى بعض الاستخفاف، ثم ما لبث أن أخذ حالي بعين الجد، فأشار عليّ بالإقامة أياما في بيت بشاطئ الحسيمة الريفية المشرف على البحر الأبيض المتوسط، بيت تملكه عشيقته الفرنسية ولا تسكنه إلا خلال الصيف. شجعني على القبول قائلا: لعل ربة الالهام تزورك فيه... أجزلت له الشكر وتقبلت العرض ما إن أكملت الخادمة تنظيف المحل.

ـ 7 ـ

حين خلوت إلى نفسي في مسكن عشيقة الصديق، شرعت أنفق وقتي تارة في استحلاء سيادة الصمت في حضرة البحر، وتارة في مراودة الكتابة بين الجلوس إلى الطاولة والتمدد على الكانبي، وتارة أخرى في الإنصات إلى موسيقايَ الأثيرة وإعداد غذائي ومشربي.

كان عزيز الشخص الوحيد الذي يتصل بي هاتفيا ليطمئن عليّ. وحين سألته عن المحامي إدريس التيجاني أنبأني بوجوده في مهمة بالخارج وأنه لم ينس ملف السيدة نوال.

نوال!

تيك التي ملأت عليّ حواسي ورؤاي...

لو أنها كانت الآن بمعيتي لفُتنت بها وسعدت، ولازدان بهالتها فصل الربيع هذا المشعُ بتباشيره وبهائه. وإني لفي غمرة الأماني وحفل الطبيعة الفائضة بتفتقاتها ويقظاتها إذا بلساني ينطلق وينذلق بكلمات سرعان ما سطرتها بالقلم على الورق،

راجيا أن تكون فاتحة خيرٍ وانحلالِ العقدة، قلت وقد "في مدح هذا البحر":

بحرٌ لا كالبحارِ العاليةِ العاتيةِ المتلفه
بحرٌ لا كبحارِ الظلماتِ الدّامسة المرجفه
بحرٌ في حدِّ الفهمِ والبصرِ
لا مكرَ ولا مكروهَ فيه ولا خرابَ ولا موتَ
فصفْهُ في سفرِ الكلماتِ بما شئتَ
وادركْ إذا ما انتفضتَ
أن اللطائفَ كلَّها، مدًّا إليكَ يرفعها
وعندَ الجزرِ أحزانَكَ والتباريحَ عنكَ يدفعها

*

بساطٌ من بُسطِ الكونِ هوَ
يحفلُ سطحهُ بأصداءِ البواطنِ والخفايا
زرقةٌ شاسعةٌ شتى
في البرِّ لا مزاحمَ لا ندَّ
وفي الأجواءِ لها لمعٌ وشظايا
نباتاتٌ وأسماكٌ خليعةً

تستقبلُ الغريبَ بالتلويحاتِ والتحايا
دُرَرٌ تلثمها الطيورُ مفتونةً فتهيمُ عشقا
وتأوي إلى الأوكار للتناسل والحنايا
حججٌ للحياةِ تدعوكَ خفَّاقةً
ما بينَ مياهِ الصحةِ والشفاء
وأخرى سخيَّةً تنثالُ بالصفوِ والعطايا.

*

تقدمْ يا ضيفَ حبِّي لهذا الفصل
وفاتحْ هذا البحرَ ثمَّ وافِهِ
تقدمْ واغطسْ معي غطستكَ الولهى
واسبحْ راقصا مصفقا للموجِ وفيهِ
تقدم معي ترَ ما أفهمُه وأراه:
الصحوُ رفقةَ هذا البحرِ ما أوسعَهُ وأحلاه!
والسكرُ في حضرتِهِ ما أعقلهُ وأتقاه!
منزلةُ الاعتدالِ والعدلِ
فانشديها يا نفسُ واتكلي

منزلةُ الالتحامِ الطروبِ ونشوةِ الآه

فاقتحمها معي يا ضيفَ حبِّي لهذا الفصل

واتركِ الباقي، كلَّ الباقي على الله.

*

عدا هذه المقاطع، لم تأتِ الخلوة بغيرها، شعرا كان أم نثرا. وهل لي أن أستغرب وقد استبدَّ الجدب بي زمنا متطاولا؟ لا محيد لي إذن عن المصابرة والمتابرة حتى يبزغ زمن البذر فالحصد. أما الآن وقد قضيت في البيت الشاطئيِّ سبع ليالٍ سويّا، فيحسن بي العود إلى الخلطة وتفقد أحوال بعض الناس. ووافق ما قررت مكالمة عزيز يخبرني أن عدنان يعيش وضعا في غاية السوء والغمّ، فسدت كل علائقه، تتقاذفه الحانات ويبيت في دور الدعارة.

حين التقينا تواضعنا على بذل ما يجب من المساعي الحميدة لإنقاذ الرجل مما هو فيه ورأب الصدع بينه وبين امرأته الجديدة. بدأنا بزيارة هاته فلقيتنا بالترحيب، ثم بادرت إلى الشكوى من زوجها بصوت أجش، معددة مثالبه وزلاته. وحين فاتحتها في ملكية الدار التي تسكنها، جاوبتني بشيء من الامتعاض أنها اشترتها منه بعقد عدلي، وأمسى هو ينفق ثمنها في تلبية شهواته ونزواته، حتى باتت لا تشاركه الفراش خوفا

من أن ينقل إليها أمراضا فتاكة. وعن سؤال الحل الذي يُصلح ذات البين ويعيد المياه إلى مجاريها، ردت وقد انقبضت أساريرها: "لا حل إلا الطلاق، ولكل ذي حق حقه... أحمد الله أني أجهضت حملي من بعل منحرف لا دين له ولا ملة". شعرنا بلاجدوى الكلام، فقمنا وانصرفنا.

وما هو إلا شهر ونيف حتى بلغنا خبر إقدام عدنان على قتل عقيلته، خبر نزل علينا كالصاعقة. تابعنا جلسات محاكمته بمعية الأستاذ التيجاني الذي تولى الدفاع عن المتهم، فحُكم عليه ابتدائيا بأربعين عاما سجنا، ثم بعد الاستئناف بخمس وعشرين سنة نافذة، ويرجع الفضل في هذا التخفيض إلى مرافعات الأستاذ الجيدةِ البليغة.

دأبنا أنا وعزيز على زيارة المعتقل إما معا أو تناوبا مرة كل أسبوع بسجن القنيطرة المدني القريب من الرباط. عدنان الوسيم، القويّ البنية، البهيّ الطلعة أضحى إنسانا أكبر من سنه، مجعدَ الوجه، هزيلَ الوزن، يخضِّبُ الشيب شعره ولحيته، ينطقُ بصعوبة ويهذي أحيانا بما لا يُفهم. أدركنا من كلامه المتقطع أن امرأته التي لا ينعتها إلا بالقحبة حطمت حياته، وانتزعت منه منزله ببيع وهمي، وأرته من سوء المعاملة والإهانات ما لا تقبله كرامة رجل. معاقرته الخمر كانت طلبا للنسيان، إلى أن بدا له، وهو في حمية الغضب والسكر، أن قتلها هو الحل الأنجع.

في كل زيارة كان عدنان يضيف إلى روايته الأساس تكملات وتفاصيل يسعى بها إلى تبرئة ساحته وإلباس فعله لبوس الضرورة القاهرة التي لا مناص منها. صرنا نهادنه في ما يذهب إليه، ونتلقى منه التشكرات على عنايتنا به وموافاته بما يطلبه منا: الكتب والصحف وعلب السجائر، إلا الخمر منعناه عنه بمقتضى قوانين السجن. وفي كل مرة ودعناه ترجينا مدير المؤسسة أن يعامله بالحسنى ولا يسمح لأحد بإيذائه أو إهانته.

في زيارة لي أرادها عدنان قصيرة، اقتصر مرتعدا على مطالبتي بتمكينه من الكحول أو قرضه مالا، وإلا فلا حاجة للمثول أمامه مرة أخرى. كلامي في نصحه وترشيده لم ينفع معه البتة، إذ ما لبث أن كرَّ راجعا إلى زنزانته من دون توديعي. وحين دعاني المدير إلى مكتبه اشتكى لي من صاحبي واصفا إياه بالسجين المتعِب، يضرب أحيانا عن الطعام، يحرض السجناء وقتَ الجولات على الفوضى والعصيان، ويصيح بالحراس أن يحترموا حقه في السكر ويأتوه بالخمر أو الحشيش... شاورت الرجل في نقل السجين المريض إلى مشفى لتصفية دمه من التسمم الكحولي، فقال إن هذا ليس من اختصاصه وقانون الاعتقال لا يسمح له بذلك.

في لقائي مع عزيز، وصفت له حالة صديقنا بالمتردية. وعرضت عليه فكرة إيجاد طريقة لنقله إلى مصحة، رحب بها

ووعدني باستشارة التيجاني في الإجراءات اللازم اتخاذها لإنجاز الفكرة. غير أن القدر أبى إلا أن يعاكسنا، إذ أخبرتنا إدارة السجن أن عدنان وُجد صبيحة اليوم جثة هامدة بفعل تناوله المفرط للكوكايين. وحين عبرنا للمدير عن استغرابنا، قال إن أحدنا مكنه من الفلوس لشراء المخدر. نفينا التهمة مطلقا، ثم هببنا لإخراجه من معتقله والتعاون على إجراء مراسيم جنازته ودفنه بعد دعوة أقاربه وتعزيتهم.

*

إنه الفضول المركوز في طبعي هو الذي حدا بي بكرةَ يومه الخميس إلى طلب مدير السجن حيث قضى عدنان، وذلك قصد تمكيني من لقاء بعض السجناء للاستخبار عن الصديق المتوفى وسؤالهم عن أحوالهم. استغرب الرجل قصدي، فقال:

- اسمعني جيدا أنا نائب المدير... صاحبك مات، انتهى، والسجناء لا شك نسوه، وهؤلاء لن يفيدوك إلا بمقابل...

قاطعته ملاطفا:

- كارطوشات سجائر، هذا كل ما عندي.

دنا النائب مني وهمس في أذني، وهو يلامس لحيته:

- وصاحب الترخيص يطلع بلاش!... ألف درهم. تترك

لي حوائجك أمانة، تلبس زيّ السجين، والزيارة ثلاث ساعات صباح هذا اليوم المناسب، يغيب فيه المدير ويقل الحراس... اتفقنا؟

وكيف لا أتفق وأنا أقرب ما أكون من بلوغ المرام! غيرت ملابسي في مخدع، ثم بأمر من النائب قادني عونه إلى الساحة وأنا أحمل هديتي، فأجلسني في زاوية مشمسة، ثم أخذ بعض السجناء يتقاطرون عليها ويتخذون لهم هيئات مختلفة تتيح لهم نيل قسط من دفء الشمس. بادرت إلى تحية كل مقبل وأقدم نفسي منتحلا هوية أخي المتوفى علال عبد الحي. لم يخف على أحد أني وافد جديد، فكان سؤال بعضهم عن جريمتي وبكم حُكم عليّ. شرعت أوزع عليهم علب السجائر وأتلقى تشكراتهم، ثم أجبت فيما طيف علال يتبدى لي ويلهمني:

- بالمؤبد...

وصاح أغلبهم:

- بالمؤبد! كلنا محكوم علينا بالمحدد إلا مولانا صاحب الهيبة اللي يلحق بنا حين ينهي فطوره.

وقال كبيرهم مؤيدا من طرف الآخرين:

- أوصيك لا تبلغ مولانا حكمك حتى لا تنازعه في مؤبده، فيخلي دار أبيك ويكسر عظامك.

تحليت بالمسالمة فقلت:

- إذن، يا جماعة، أنا مثلكم بالمحدد أي بأربعين عاما سجنا نافذا، وكفانا الله شر النزاع... تسألون عن سبب جريمتي: ذبحت امرأتي وعشيقها على فراش الزوجية... أليس هذا من حقي؟ من منكم لا يبرئني؟

وتعالت أصوات هاتفة:

- بل من حقك يا بطل، ونبريّ ساحتك بالإجماع.

وعلق كبيرهم:

- فعلت يا علال الفعلة الكبرى وأكملتها، فكنت أفضل وأفتك من هذا بجنبي اللي قتل زوجته دون عشيقها، وهذا الآخر قبالتي اللي فعل العكس.

كدت ألهو عما جئت من أجله، فسألت بصوت جهير:

- وعدنان اللي انتحر في زنزانته بهذا السجن... عدنان العدوي من يحدثني عنه بما يعلم؟ كان رحمه الله من أعز أصدقائي. عاش مصاعب وأزمات بسبب زوجة طغت عليه وتجبرت فاغتالها. أخبروني كيف كانت سيرته بينكم... هل كان يحب أن يموت؟

أجاب واحد التحق بالجمع وأنا أسأل وأتحرى، قال:

- عرفت عدنان كرفيق الزنزانة. لم يقبل أبدا بالحكم الصادر عليه. كان يؤمن بالله وببراءته. ولما تيقن أن السجن مسكنه لسنوات طويلة لم يعد يتحمل عبء أيامه إلا بشرب الخمر وتناول المخدرات. في هذا السجن يوجد كل شيء، حتى السم إذا كان الطالب يتوفر على الفلوس، وعدنان كان أحد زواره يمده بما يحتاجه منها... هذا كل ما أعرف، ولا احد من هؤلاء يعرف أكثر مني.

اغتنمت طلالقة لسان مخبري فسألته:

- وأنت ماذا جاء بك إلى هنا.

- أنا أمري بسيط... حرفتي اللصوصية. في آخر مرة دخلت دار غني فضبطني حارسه في حالة تلبس، تشاجرنا، وكان سيغلبني لو لم أطعنه طعنات بسكيني. وعند باب الخروج تلقفني الجيران والبوليس. والآن أقضي حكما بأربعين سنة سلخت نصفها، ولا حلم لي إلا الهروب.

وقال آخر لم أسأله:

- أما أنا فكسرت جمجمة زوج ابنتي قرة عيني واليتيمة من أمها. كان يعذبها ويعنفها كل يوم. وحين لم ينفع فيه تحذيري وتهديدي قتلته في لحظة غضب شديد... هل كنت أنت تفعل غير ما فعلت؟ أجبني...

ترددت قليلا، فتعالت أصوات مرددة: ما فعلت كان الحل يا بطل!

وأراد آخر الكلام فأسكته كبير الجماعة الذي توجهت إليه سائلا:

- وأنت سيدي ما قصتك؟

أجابني متعجرفا:

- مقابل سجائرك، هديتك، إعلم أني اتهمت بالقتل العمد كغالبية السجناء، والعصابة تحت تيك الشجرة هم من المتاجرين بالمخدرات... ثم ما لك تشوش علينا بأسئلتك وفضولك؟! إلزم حدك، إحترف السلو والنسيان، كما نحن، وإلا...

لم يكمل الرجل كلامه إذ أقبل رجل عملاق، شديد البنية، فائض العضلات، مظفر الشعر، مهيب الجانب، فوقف له الجميع، وفعلت مثلهم، وهم يهتفون: مرحبا بصاحب المهابة، أهلا بالسيد القيدوم وسهلا بالقايد المحبوب... ثم جلسوا فتربع مولاهم على مصطبة، وجال بنظره في كل صوب متفرسا الأبدان والوجوه، وقال بصوت هادئ أجش:

- يا سادة، الحمد لله الذي هدانا إلى مغالبة الوقت وثقله وسأمه. التوافق الإيجابي مع الإدارة، نبذ العنف من مجالنا

وعلاقاتنا، البرمجة الجيدة، الرياضات والأكلات النافعة، كل هذا وسواه مما يفي بحقوقنا ويقينا شر الشطط وما لا يحمد عقباه. لكن ليظل التماسك غايتنا والتضامن خيارنا، نقول لا وألف لا للجواسيس والمدسوسين. وأنا من على مصطبتي أمهل ثلاث دقائق من هو في عداد هؤلاء حتى يكشف عن نفسه وينصرف آمنا، وإلا رفعت عنه غطاءه وأمرت بصفعه على قفاه حتى تحمرّ، ثم بجلده ثمانين جلدة حتى ينزف ظهره ويتقيح. وقد أعذرَ من أنذر.

خيم صمت ثقيل على المكان، فما كان مني إلا أن وقفت وأعلنت عن هويتي الصحيحة وبراءتي قلت:

- قصدي يا مولانا إنما كان إشباع رغبتي في التعرف على أحوال عينة من السجناء، وعلى وضع حقوقهم الانسانية هل هي مصانة مرعية، وذلك حتى أكتب في الموضوع مقالات أنشرها في منابر ومواقع. هذا كل ما في الأمر، ومن حيث إن الغاية تبرر الوسيلة كذبت إذ ادعيت أني قتلت. والله شاهد على صدق سريرتي وما أقول.

نده عليّ القايد أن أقبل، فقربني منه مشتما قفاي ومطبطبا على صدري، وبثَّ في أذني كلمات أذهلتني: لستَ والله منا يا يقظان عبد الحي...ثم صاح آمرا: المشي أو الجري يا عباد الله... وقام منتفضا فجذبني من كتفي في ما يشبه جولة

بالساحة. ولما اقتربنا من نفر مستظلين سنديانة أفسحوا لنا الطريق ثم تشتتوا، إلا من ثلاثة تخلفوا فانهال عليهم بالركل المبرح إلى أن قاموا معتذرين مرعوبين، وهرولوا نحو عصابتهم. ومن بعد، ما سمعته من الرجل كاد يسقطني على أم رأسي، إذ قال لي وهو يدخن سيجاره:

- الحشاشون الهاربون مني هم من تسببوا في موت صديقك عدنان.

سألته منفعلا:

- وكيف يا سيدي؟

- باعوا له مخدرا كالسم، رحمة الله عليه... كنت أخصه بعطفي لأنه كان في قمة الشقاوة... والآن ربما تريد تعرف شيئا عني. مثلا كيف جئت إلى هذا السجن. قتلت تسعة أعضاء من مافيا كانت تنازعني السيطرة على الاتجار بالسيارات المسروقة وأجساد القحاب.

صمتَ قليلا كأنه يتأهب لإلقاء قول ثقيل عليّ.

- حرفتك؟ إما صحافي أو كاتب. حياتي مليئة بالأحداث والتقلبات والمفاجآت. إن أردت أحكيها لك خلال زيارات أعدها لك هنا، فلا شرط لي إلا أن تكون وسيطا بيني وبين أشخاص في الخارج من أصدقائي القدامى اللي أثق بهم... فكّر

في الأمر ثم اخبرني بقرارك. أما الآن، استرجع حوائجك ورشوتك. قريبا نلتقي إن شئت...

ودعت الرجل على عجل مدركا أنه لا شك اطلع على اسمي وعنواني في جيوب بذلتي المدنية، ثم طلبت المغادرة من النائب الذي كان في انتظاري، فارتديت لباسي وردَّ عليّ مالي. وفي الخارج تنفست الصعداء وهواء حريتي المستعادة، وشكرت القدر أن نجاني من إحدى مطبات الدنيا وورطاتها.

الكوابيس تخالط نومي بين حين وحين وتعكر صفوه، آخرها في عقر داري على فراشي أراني عملاق السجن يحفر لي قبرا عموديا ويلقيني فيه حتى العنق، ويهددني: إما تدخل في الخدمة أو ألحق رأسك بجسدك. رجوته أن يخلصني حيّا فلم يستجب بل أرغد وأزبد. سألته عن معنى الخدمة، فوضع كفيه على رأسي وصاح بي: أن تكون واسطة بيني وبين صحابي خارج السجن، ساعي بريد وحامل أشياء خفيفة... شعرت بعرق حار يتصبب من جسمي ووجهي، قلت: لا دراية لي بذلك ولا دربة. أعفني أعفاك الله من النار... رأيت الشرر يتطاير من عينيْ الرجل وسمعته يزمجر بكلمات: إذن لا خير فيك يا عبيط، يا جبان؛ ثم أحسست برأسي يغوص في الرمل وبالهواء ينقطع عني، فأطلقت صرخة مدوية أيقظتني من

نعاسي، انتفضت فدرت دورات في أرجاء الحديقة والدار ثم هرولت إلى الحمام للاغتسال.

لم يكن العملاق يزورني في منامي فحسب، بل أمسى شبحه يداهمني أيضًا في بعض لحظات سهوي وشرودي، فأراه مرتديا جلد الدب، يجول ويصول في غابة عذراء، يتوحش فيها ويمضي أوقاتا لا تترك فرصة لخموله: وقت لاصطياد أقواته، وقت لنصب الكمائن لأعدائه، وقت لتهريب الإناث واغتصابهن، وقت للهضم ورمق مجريات السماء، ووقت للسهو أو النوم بعين واحدة داخل غاره... ولما يؤوب إلى المدينة أراه يبرع في تصريف شروره، يَقتل ولا يُقتل، وكالثعلب يسرق ويخدع، وفي سوق الدعارة والسرقات يتاجر وينشط. رأس ماله يقوم في قوته البدنية ودماغه الشيطاني. له خدم وجواسيس عاهدوه على الطاعة والولاء في تنفيذ أوامره وتصاميمه. محكوم عليه بالمؤبد، لكنه من داخل معتقله يظل يسود ويحكم بفضل تواطؤات داخلية وأخرى برانية، وذلك حتى تدق ساعة فنائه التي لا يفكر فيها ولا يخشاها.

وذات ليلة مرعدة مطيرة، عاودني صوتي الجواني هامسا: العملاق ذو العضلات المفتولة والصوت المعدني الأجش كائن حيواني في صورة إنسان، لا دينَ له ولا ملة، لا أخلاق ولا شريعة. المجتمع في عرفه غابٌ تسوسه غريزة الافتراس والبقاء

للأقوى. شعاره أن يأكل أو يؤكل، ولا مكان فيه للمتروكين والضعفاء... فخذ حذرك منه وبعدك عنه تسلم وحياتكَ تحفظ. أما إن تعشيت مع الشيطان ولو مرة فستكون في سبيل بيعه روحَك...

*

بُعيد وفاة عدنان، تسارعت الأحداث وتناسلت. فنوال النهري التي احتجبت عن ناظري وبدا شأوها لا يُنال وأفقها لا يُران، أنبأني هاتفيا الأستاذ التيجاني بأن الطريق إليها بدأ يتبين، ولو أن قضيتها ما زالت تبرح مكانها بفعل امتناع زوجها عن طلبها الطلاق واستفادته من علاقاته ببعض المتنفذين المعرقلين. ترجيته أن يلقاها كما يسمح به القانون ويتولى أمرها بغية إيجاد حل يحررها من ربقة بعلها وجبروته، فوعدني بالاستجابة إعادة تحريك ملفها بأقصى سرعة. وفعلا ما هو إلا شهر حتى وفى الرجل بوعده وحصلت نوال على طلاقها وحضانة بنتها مقابل تنازلها عن حقها في النفقة والسكن. كشفتُ له عن نيتي في الزواج بها فهنأ وبارك، ولبّى طلب تمكيني من هاتفها الجديد بعد أن رخصتْ له هي بذلك.

في أول لقاء بها ببيتي، عبرت لي المتحررة عن شكرها وامتنانها لما فعلت من أجلها، واصفةً صديقي المحامي بكونه إنسانا ذا كفاءة عالية وأريحية بالغة. أصدقتها القول ولحظت أن

فرحها باسترجاع حريتها زادها حسنا على حسن، فما كان مني-ربما استداركا للزمن الضائع- إلا أن سارعت إلى الإعلان لها عن رغبتي الأكيدة في طلب يدها وعشرتها متى قبلت. ولقد أتى جوابها بالقبول، ولو أنها شرطته بالذهاب معا للعمرة ما إن يتم عقد القران، وبقصر الاحتفال بعد عودتنا على أيسر صيغة وأبسطها. وافقت على الشرط مرحبا وقابلته بآخر مؤداه أن نتعاقد عاجلا من دون أي إبطاء.

وفي الغد دعتني إلى غداء في بيتها حيث عرفتني على أمها العجوز وبنتها، ثم على بعض أرجاء الڤيلا في مقدمتها خزانة أبيها المتوفى الذي حدثتني عنه بكثير من الإجلال والتأثر. وأثناء الظهر حُرر العقد من طرف عدلين وتلا أحدهما حاشيته التي تنص على أن العصمة بيد الزوجة، وحضر لذلك رجلان من أهلها، وسُمعت زغرودة أطلقتها الخادمة التي كانت تسهر على راحة الجمع وإطعامهم. وحين حان وقت الفراق قبلتُ رأس الأم فيما هي ترضى عليّ وتدعو لي، ثم عرجت على البنت لملاطفتها، غير أنها نفرت وفرت. وقبيل خروجي وعدتني من أمست زوجتي بزيارتي في منزلي قبل حلول الليل. لما أقبلت بادرت بالاعتذار لي عن سلوك شيماء، وعللته بكونها تحب أباها حبا شديدا وترفض أن يحل أيّ أحد محله، ونصحتني بالصبر عليها ريثما تكبر وتتعقل. طمأنتها من

جهتي معتبرا ردة فعل الفتاة جد طبيعية، فاغتنمت تفهمي وقالت بتعذر قضائنا الليالي معا في مرحلتنا هاته، وإلا فإن بنتها ستمرض وتعاني من مشاكل في دراستها.

جنّ الليل فدعوت قرينتي إلى السحر الحلال، اعتذرت عنه بدعوى أنها حائض. وسرعان ما حولت الحديث إلى وجهة العمرة، فألححتُ عليها بأن أتكلف بالأمر وبكل المصاريف كهدية من هداياي المقبلة إليها. عبرت عن شكرها وامتنانها ثم قامت للانصراف. ودعتها بقبلتين شهيتين، وبعدها ذهبتُ للاهتمام بنفسي، مفكرا في هذا الذي يحدث لي.

ـ 8 ـ

تمَّ السفر إلى مكة على أحسن وجه، وكذلك أداء مناسك العمرة وحتى الأفعال الزوجية الشرعية. وكانت نوال تهتف لبنتها وأمها مرات في اليوم ولخالها الذي تركتهما تحت رعايته. وخلال إقامتنا ساورتني فكرة غريبة ملحاحة: أن ألبيّ فضولي الغريزي بالاستخبار عن مريم الماجدي ومقابلتها إن أمكن حتى أطمئن على حالها ومآلها، مرجحا أنها ما زالت مقيمة بمكة. خاطبت زوجتي في الأمر مدعيا أن مريم من أقاربي وقاصرا التعريف بها على القليل الأقل، فوعدتني بالبحث عنها بواسطة مطوف تعرفه. وكذلك كان، إذ ما هي إلا بضعة أيام حتى شخصت أمامي امرأة بخمار وحجاب أسودين، قالت نوال ذات الزيّ نفسه إنها السيدة المطلوبة. جالستني هته محييةً حول مائدة شاي فحييتها بدوري وسألتها عن أحوالها، فعلمتُ من نبرة صوتها أنها هي ضالتي المنشودة وأنها بخير وعلى خير، إذ تزوجت من مكّيٍّ يشتغل بالتجارة ويوجد اليوم على سفر، وهمست لي أنها تستحسن ألا أتعرف إليه؛ هذا فيما نوال تغيب في المطبخ أو تعود إلينا مرحبةً بالزائرة منوهة. شعرت أن حبل

الكلام مع جليستي قصير وأنْ لا فائدة من اللف والدوران، وكان هذا ولا شك شعورها أيضًا إذ صارحتني هامسة: "رؤيتك يا سيدي يقظان توقظ فيّ ذكريات مريرة، ما جاورت في مكة إلا لنسيانها، وأنت ولا شك ما زلت، كما عهدتك، حافظا للود والسر". أكدت لها ذلك، ثم قامت وألقت عليّ السلام وقصدت زوجتي فعانقتها قبل أن تنصرف خفيفة الظل مهرولة. وما إن غابت تماما حتى تسلسلت أمام ناظريَّ حلقات من حياتها المرتجة، ثم انتابني إحساس بالندم حادٍّ على بحثي عنها، ورأيت في قولها الختامي عين الصواب والحكمة.

لما خلوت بحرمي لم تنبس ولو بكلمة في شأن الزائرة، وفي العشيّ دعتني إلى التجول في بعض أرجاء المدينة والعروج على سوقها لاقتناء هدايا للأقارب والأصدقاء. وقبيل حلول تاريخ الرحيل، عرضتُ عليها أن يكون إيابنا عبر القاهرة أو باريس حيث نقيم بضعة أيام، فاعتذرت بدعوى تشوقها إلى بنتها وأمها، فكان موعد عودتنا إلى موطننا كما قررته.

خلال الرحلة نامت نوال عازفة عن الأكل والشرب، وظللت أنا أرقبها وأسرح بفكري في مآل علاقتنا، هل إلى تلاؤم مريح وتوافق سعيد، أم إلى عقبات ومنغصات. ملت بكل جوارحي إلى تغليب الاحتمال الأول مع ما يفرضه من جهد ونزوع إرادي لا ملل فيه ولا كلل، وشرطت تقوية ميلي

بالإغضاء عن علامات سلبية كاستغراق الزوجة الآن في نوم وهي بجنبي غير عابئة بي ولا مكترثة. علامات أوكلتُ إلى الزمان أمر تحييدها ونفيها. وحدث أن مطبات هوائية أصابت الطائرة ببعض الارتجاجات، فأيقظتْ النائمة وجعلتها تتشبث بذراعي وتمنحني قبلة وتأخذ مني أخرى. وحين جيء إلينا بالطعام مرة أخرى سررت برؤيتها تقبل عليه بشهية ونهم، وتبادلت معها كلمات وانطباعات حول عمرتنا وتواعدنا على قضاء مناسك الحج في المستقبل المنظور.

لما حطت بنا الطائرة في مطار محمد الخامس، وجدنا في استقبالنا خال نوال وبنتها، فكان السلام والعناق، إلا من الفتاة التي قابلتني كعادتها بالتبرم والجفاء، وظلت على حالها حتى أثناء الوصول وتوزيع الهدايا على الأم والخال والعم وخادمة المنزل.

شيماء مشكلة لا بد من حلها! بهذا صِحْتُ لزوجتي هاتفيا ما إن حللتُ بمنزلي، فالتمست مني الصبر ريثما تقبلني البنت وتأنس بي. أهبت بها إلى أن تمارس عليها سلطتها كأم، وأمهلتها أسبوعا للالتحاق ببيت الزوجية. ولما نهتني عن التحذير والوعيد -هكذا فهمت كلامي- شعرت أن بذور أول شقاق بيني وبينها قد زرعت حتى قبل أن نقيم للقران عرسه. قلقتُ للموقف فملت إلى سلوك التهدئة ما إن قابلتها تحت

سقفي بعد انصرام المهلة. سألتها وأنا أعب شايي وأتمالك أعصابي:

- وضع غريب، يا نوال، هذا اللي نعيشه! يشبه إلى حد مّا الزواج السري... ما يزعجني فيه أنه لا يتوفر على الشروط المعهودة. أقيم في دار وأنتِ في أخرى، لقاءاتنا هنا قليلة خاطفة، فهل تقبلين بهذا الوضع الشاذ وإلى متى؟

أجابت وهي تصطنع الثبات والهدوء:

- إنها مرحلة عابرة وقضية وقت... شيماء تجتاز أزمة المراهقة، تعلقها بأبيها جنوني، تراه متى تشاء، تهدد بالإقامة عنده وبالانتحار إذا أنا حرمتها منه أو أكرهتها على السكن معي عندك.

طوقتها بسؤال آخر لعلي أدفعها إلى الكشف عن كل أوراقها:

- بسبب المراهقة لم يعد عرس زواجنا من الأولويات! هل سمحت لها إذن بأن تعبث بعلاقتنا وتعرضها لخطر الطلاق؟

أجابت متحلية بطابع الصدق في كلماتها:

- لا سمح الله! امنحني بعض الوقت حتى تحل عطلة الصيف المدرسية... مهلة شهرين وبعدها ندبر أمرنا بما ينفعنا... تفهّم موقفي يا يقظان. أنا لا أريد التسبب للبنت في

مشاكل تعرقل دراستها ومستقبلها... اعذرني أرجوك.

ضمتني إليها باكية، دعوتها إلى فراشي فلبت راضية.

*

خلال مهلة الشهرين اعتنيت بنفسي وكثفت من قراءاتي، كما ساهمت في ندوات فكرية بإيعاز من عزيز الذي أحجمت عن إنبائه بأمر زواجي المتعثر، وذلك ريثما يلوح مآله إما إلى الأحسن أو إلى الأسوأ. والحق أني في رفقة هذا الصديق أجد ترياقا ضد الملمات والمعاكسات ومنفذا وحيدا إلى علاقاتي الغيرية التي ينتقيها لي ويرتبها، خصوصا في مجال أنشطة الأندية الثقافية والمعارض الفنية.

انصرمت مدة الشهرين المحددة، ولا خبر من نوال ولا مكالمة. وكيما أضع للانتظار حدا بادرت إلى طلبها هاتفيا، وإذا بي أصعق بعدوانيتها إزائي، فادعت أني عديم الأخلاق، استعملتها للقائي في مكة مع من أسمتها عشيقتي القديمة؛ وأبلغتني أنها قررت رجوعها إلى زوجها رأفة ببنتها، ولأنه أعطاها كل الضمانات على أن سلوكه تحسن واستقام، علاوة على أنها ما زالت تحبه. فما كان مني إلا أن سبقتها إلى إعلان طلاقها مني، داعيا إياها إلى حيازة نصه القانوني في المحكمة، ثم أقفلت الخط واضعا حدّا لعلاقة عبثية استثمرت فيها عاطفيا،

وما كان لي أن أفعل لو أني حكّمت عقلي كلَّ عقلي.

نوال العصية حقا على النوال، التي أشاحت عني إذن بجسمها وقلبها، وداست حلمي وكبريائي، لن أدعي أني بجرة قلم شطبتها من ذهني وعواطفي، فقد ظل طيفها يراودني حتى في بعض الرؤى المنامية. وكيف لا وقد خلتها تكون لي مرقاةً وفرّاجة كربي المقيم، وخلتُني استدفئ بقربها وأستضيء بحسنها ما حييت. واليوم تهاوى المسعى وأمسى أثرا بعد عين. فيا حسرةً عليَّ إذ سرتُ مدةً لهفانَ وراءَ سراب!

اليوم َعليّ بالقول الحكيم: ربَّ نقمة في طيها نعمة. وإذ لا وفاق ففراق من دون ندمٍ وسدم. فلا منفذ إليّ للهموم المتكالبة، ولا رجاةَ لي إلا أن تتولاني أمهات الخير ومجبرات الصدع، ودونها الكتابة التي لـمّا تزل تأرن وتتمنع، فلا تلهيني عنها وعن نوال إلا الحفلات والأعراس التي غدوت أحضر أغلبها أكثر من ذي قبل، فأصافح من أعرف وأتعرف على بعض من لا أعرف، وأتبادل معهم الكلمات المعتادة وأخرى في شؤون تبدأ أو تنتهي بالسياسة. والحقيقة أني أجد شيئا من المتعة في ترك عينيَّ تسرحان وتمرحان، مسترقاً النظر إلى المدعوين والمدعوات، كأنما هم على مسرح يلعبون فيه أدوارا محددة، تجانب العفوية والارتجال. ولا ريب أن أمثالي في اقتناص متعة التفرج موجودون، وإنْ مع ثبوت الفارق. النساء

اللائي يخنّ أزواجهن ما بين الخامسة والسابعة عشيةً عليهن سيماء الخفة والنزق. أما الوحيدات مثلي ففرصة محادثتهن عادةً ما تكون سانحة، إلا أن تمخُّضها عن علاقة مّا لا يكون له غالبا ما بعده، إما بسبب التعقيدات والإكرهات، وإما لأني حسب تجربتي صرت نزاعا إلى التحوط والعزوف. وهناك المترهلات، لا أملك إلا أن أصيخ السمع إلى كلامهن وأعاملهن بالحسنى. خلتُ واحدة منهن تسِّر إليَّ قائلة: مصابة أنا بخصاص فادح في تلقي الحنان والأنس، مما يجبرني على استئجار خدمات شبان لتعويضي عنه، مؤدية ثمنا يقاس بالوقت المستهلك... همست في نفسي: هذا وجه آخر من وجوه البؤس البشري! خِلتُ ما خلت، وفي مناسبة أخرى بدا لي ما خلتُ مشخصا أبلغ تشخيص في عجوز كانت في البدء تشكو مما تعانيه هاتيك، إلا أنها لمغالبة ابتزازات مرافقيها الشباب ومساوماتهم وتهديداتهم لها بالقتل إن هي لم ترضخ، أخذت تتخلص منهم باستئجار خدمات رجال شداد يقنعون بما تدفعه لهم.

أضف إلى ذلك كله أني أخذت أحيانا أرتاد ليلا صحبة عزيز بعض الخمارات، ليس لطلب السكر بل للوقوف على طقسها الملوث بدخان السجائر والأوهام، ولقياس طيش الرؤوس المعربدة التائهة بين استهداف النسيان والرغبة في أن

تهبهم الراح شيئا من الراحة الروحية وشيئا من أجنحة الفرح الجامح.

ذهب الزمان إذن الذي كنت فيه أعتبر الكتابة مسلكا إلى الشفاء والعجزَ عنها إصابة بوجود أقل. واليوم، قلقي الأقصى وربما الأشرس هو أن أستيقظ ذات صباح وقد ألمَّ بي مرض عضال. وعدا هذا، فليكن التزود عندي للحياة بأفانين المفرحات والمبشرات، على سُنة الصوفية وحكماء الصين واليونان.

صحّ نزوعي إلى استشفاءٍ ذاتي، ولو أني أرى سبيله ما زال طويلا شائكا، وإلا لكان سلوكه ميسرا للجميع، فتبور تجارة النفسانيين أو يضمر رواجها. هذا وليس عليّ اليوم أو غدا أن أهلل وأفرح رافعا شارة النصر، فمخبوءات الزمان خيرها وأيضا شرها واقع قائم لا ريب فيه، والنكوص إلى بؤر الشؤم وعقده يظل واردا في أفق الإمكان والحدوث، وكذلك الكبوات القاهرة. وعليه، فالحذرَ الحذر، والتحوطَ التحوط لما ليس في الحسبان قد يأتي.

ـ 9 ـ

ملبيا النصح المحمدي: "لا تنسَ نصيبك من الدنيا"، قلت هذا اليوم الربيعي لي، ببهائه ومفاتنه لي. قضيتُ ساعاته الأولى في نادٍ اعتدت ارتياده وتعرفت على بعض زبنائه، فسبحت كثيرا، وتريّضت ما وسعني التريض، وعرضت جسمي للدلك، وبعد ذاك تدوّشت ثم جالست في المقصف واحدا من معارفي، الحاج عبد الودود الوردي، الذي كنت حين ألقاه أستمتع بنكته وتعليقاته الساخرة على ما يختاره من الأحداث ومنوعات الأخبار.

في نهاية الجلسة اقترح عليّ الرجل أن يأخذني في سيارته لقضاء ظهر اليوم وعشيته في شاطئ الرمال الذهبية، حيث يريد إطلاعي على مفاجأة سارة. قبلت دعوته ممتنا، وحين بلغنا المقصد أدخلني إلى شالي مبني باللوح والزجاج. قدم لي رجلا عليه هيئة صياد، شديد السمرة، طويل القامة، معمم الرأس، ترتسم على محياه ابتسامة فرح طبيعي لا تفارقه، فسلم عليّ سلاما حارا، وخص مضيفي بكثير من الحفاوة والإكبار. ومن بعد استسمحنا محمود -هذا اسمه- في الذهاب إلى مركبه ثم

عاد بسطلين مائيين، فأطلعنا على ما فيهما من سمك حيّ، ثم شرع يعده للطهي والشي، وحين انتهى قدمه لنا على طاولة في عريشة مطلة على البحر، فقال لي الحاج مسرورا: هي ذي المفاجأة! شكرته عليها وأخذنا ننال من السمك الطري هنيئا مريئا، وأتبعناه بكأسي شاي حلوٍ ساخن، وبعده نعت لي صاحبي غرفة للاسترخاء وانتحى ركنا للصلاة. أما أنا فقد استسلمت لقيلولة ناعمة بفعل لطافة الطقس وهبّات نسائم عليلةٍ ندية. وحين أفقت أخذ الحاج يحمد لي نومي ويشكر الله على هباته وأنعمه؛ ثم بطلبه صحبته في جولة استطلاعية للشاطئ وما يحفل به من مباهج ومحاسن، أتبعناها بأخرى في المركب على سطح البحر، قادها محمود بمهارة فائقة، وهو يغني بأعلى صوته أزجالا ومواويل، فيما مرافقي يشدو معه بعضها ويبارك له صنيعه ورخامة صوته، فأصيح مزكيا ما وسعني الصياح. ولما عدنا إلى المنزل تغيب الصياد وعاد بعد لحظات بغنيمة سمكية وزعها بيننا مناصفة، مشفوعة بأدعية لنا، واصفا الحاج بالرجل الخيّرِ الكريم الذي قلَّ نظيره.

في طريق عودتنا إلى النادي حيث تركت سيارتي، إمتدح مرافقي حارسه وأثنى على بساطته وحبه للحياة كما تتيسر وتأتي، ثم دعاني إلى الحلول بمنزله ذاك متى شئت، فشكرته منفعلا مؤكدا على أن هذا اليوم الذي أمضيته في ضيافته لن أنساه ما حييت.

في مأواي شعرت بـحيوية تنثال عليّ ويسري دبيبها في مفاصلي وشراييني، فما كان مني إلا أن يممت حديقتي السرية الحسنةِ التأثيث والتجهيز، وأحضرت ساكنتها عفراء مولاتي، فأشرتُ عليها بالرقص أمامي على نغمات قطع موسيقية تختارها وتشغّلها. وكذلك كان، إذ تابعتُ مشهد الراقصة الشيق متئكا على الأريكة، مستحليا نعومة حركاتها وانسجامها البليغ مع الطرب المؤدى. وبعد ذاك كان ما كان مما يليقُ بالمقام ويحسنُ الظنُّ به.

في الصباح سجلت تدوينات في مديح النوم الناعم والاستفاقة المرحة الفرحة. تلفنت لعزيز، عبرت له عن تشوفي إليه، فبادلني الشعور نفسه. اقترحت عليه استضافته في النادي فقبل شاكرا، سيما وأن اليوم عطلة. وهنا عرّفته على الحاج الوردي الذي بادر إلى دعوتنا لقضاء يومِ غدٍ الأحد في بيته الشاطئي، فاستجبنا مرحبيْن. ولـمّا حللنا به سبحنا كلنا في البحر، وبعده أكلنا من سمك محمود مشويا، ثم استسلمنا لنوم خفيفٍ لطيف، تلاه في العريشة شُربُنا لقهوة ميقظة، ثم تجاذبنا أطرافَ الحديث في أمور شتى كان للمضيف السبق في إثارتها. علمت بالمناسبة أنه تقلب في مناصب مديرية مهمة، ولو أنه لا يذكرها إلا لماما، وأن معرفته بالسياسة وطبائعها ومطابخها معتبرة. استنتجت أيضًا من كلامه أنه ممن يُحشرون سياسيا في

طبقة الصاعدين إلى الهاوية، إلا أنه فلت منها بالعودة إلى الأرض حيث ثبَّت قدميه واستثمر في الحجر فاغتنى وملك.

قلت في سياق لا شك يعرفه:

- الحاكم في معظم أوطاننا كأننا به يقرر: أنا الأعلى، ومن أراد تجاوزي قطعت رأسه. وقد رُوي عن واحد صاح في شدة غضبه: من سعى إلى منافستي أو حتى التشويش عليّ، آتوني برأسه حيا أو ميتا... فوالله فعلتَ خيرا يا حاج! الاحتباس السياسي في بلادنا فرصة ثمينة للتعويض عنه بحياة حرة كريمة.

أردف مخاطبي:

- لكن رغم الخسارات والشدائد، هناك ما يتربص بالمستبدين والفاسدين ويعمل على استنزافهم وتصدعهم من جهة الزمان وتقلباته الضاغطة، ومن جهة التكاثر المخلخل في أعداد السكان والمشاكل المستعصية، ناهيك عن أحوال الناس المتردية...

ساد بيننا صمت تأمل لبضع لحظات، فخرقه عزيز قائلا:

- اشتريت منذ مدة ضيعة من ثلاثة هكتارات فلاحية... أملي أن أكون في مستقبل الأيام مالكا مثلك يا حاج، كثّر الله خيراتك.

أجاب المضيف للتو:

- يكون لك ذلك إن شاء الله، شريطة أن تعمل وتكد وتجعل في ما تملك حقا للسائل والمحروم.

- ورجائي أيضًا أن تشرفني بزيارة الضيعة بمعية حبيبنا يقظان. وأوكد من هذا وألح أن تنعم علينا وعلى جمهورك العريض بمحاضرة في مسألة تختارها من بين مسائلك الثرية الأثيرة، على أن تبعث لي ملخصها أنشره في موقعي أسبوعا من قبل.

رحب الحاج بالدعوة ووعد بالإرسال، ثم تابعنا كلامنا أثناء جولتين، واحدة مشيا على رمال الشاطئ، وأخرى في المركب يقوده محمود على نغمات أزجاله ومواويله.

بعيد يومين نشر عزيز الملخص، وجاء فيه: «من بين المقاومين الأماجد للإستعمار يطيب لي أن أقدم عينة معتبرة أسميتها "المحمدون الثلاثة"، وهم على التوالي: 1- السلطان المغربي محمد الثالث الذي حاول خلال النصف الثاني للقرن الثامن عشر إصلاح أحوال بلاده بنهج غير مسبوق من اللامركزية الإدارية والتسييرية، وذلك بإسناد إدارة الجباية لا إلى قوة الجيش (كما على عهد جده إسماعيل)، بل إلى تدبير المستحقات الضريبية على التجارة الخارجية، الموانئية والبحرية. وقد أدت

هذه السياسة دورا مهما في مراودة بعض وجوه التحديث الواعدة، غير أن صعوبات داخلية وبالأخص إكرهات وضغوطات خارجية عاكست توجهها واستمراريتها. وهكذا أتى الاستعمار الأوروبي لتعميق الأزمات المغربية وإدارتها لصالح تغلغله وسيطرته، وذلك من خلال مسلسل انتهى في 30 مارس 1930 بتوقيع السلطان حفيظ على معاهدة الحماية الفرنسية...

2- محمد علي والي مصر، الذي سعى في النصف الثاني من القرن التاسع عشر إلى النهوض بمصر وتحديثها علميا واقتصاديا وثقافيا، وذلك بعد أن وسع حكمه إلى الجزيرة العربية والسودان وسوريا والأناضول وحقق انتصارات عسكرية مهمة؛ وكان يذكِّر دوما بسعيه التمديني والتحديثي وبحرصه على رعاية مصالح الأوروبيين، ويقول بالحرف: «إني لست من دينهم، ولكني إنسان مثلهم، ويلزم أن أُعامل إنسانيا». وذهب إلى ذلك وسواه، إلا أن أنجلترا نظمت مع حلفائها الأوروبيين حملة عسكرية لكبح جموحه الإصلاحي ومنعه من ترقية مصر إلى مصف بلاد نامية حديثة وقوة إقليمية وازنة. وكان تدخل تلك القوى متذرعا بنزوع الوالي إلى الاستقلال والاستقواء تجاهها وتجاه الباب العالي العثماني الآخذ في التصدع والإذعان لهيمنة الأوروبيين وحمايتهم. فاضطر محمد علي إلى التراجع عن مشاريعه التحديثية وقبول تحول حكمه على مصر

وحدها إلى خديوية وراثية. وقد عبر عن معاناته الممضة بوعي مريرٍ مكلوم في مراسلاته مع قنصليات أجنبية مَعنية... فكيف لا ينتهي ومعه شرائح واسعة من العرب إلى الاقتناع بأن الغرب لا يريد منهم أن يتشبهوا به ويقتدوا، بل فقط بعبارة محمد علي نفسه "أن يخضعوا له ويطيعوه"!... 3- محمد مصدق رئيس الحزب الوطني والوزير الأول في إيران، الذي أمم في 1951 ثروة بلاده النفطية، وسعى إلى إرساء الديمقراطية نظاما وممارسة؛ ثم سرعان ما تمَّ إسقاطه من طرف الشاه في 1953، وذلك بإيعاز من وكالة المخابرات الأمريكية، كما اعترف به تقرير للوكالة نفسها نشرته في أبريل 2000 نيويورك تايمز، مما حدا بمادلين أولبرايت، سكرتيرة الدولة السابقة في الخارجية، إلى الإقرار بدور بلادها في ذلك الانقلاب والاعتذار عنه».

أثنيت على فحوى ورقة المحاضر وعقبت عليها في الموقع مسجلا: «ويلزم تذكر حالات أخرى كثيرة ومعروفة حول الإرهاب الكولونيالي، منها العدوان الثلاثي (فرنسا، إنجلترا، إسرائيل) على مصر في 1956 بعد إقدام جمال عبد الناصر على تأميم قناة السويس؛ ومنها اغتيال باتريس لومومبا في 1961 بإيعاز من دول غربية للحفاظ على مصالحها وامتيازاتها الاقتصادية في الكونغو كينشاسا وإقليمه كاتنگا الغني بالثروات المعدنية؛ وقد اعترفت الحكومة البلجيكية في غضون

يناير 2002 بمشاركة بلادها في ذلك الاغتيال، واعتذرت عنه للشعب الكونغولي... هل بعد ذلك -وهو غيض من فيض- نستمر في ترديد اتصافنا بالهوس المؤامرتي أو قول الشاعر: "نعيبُ زماننا والعيبُ فينا/ وما لزماننا عيبٌ سوانا"، وهذا عوضا عن الإقرار بواقع ذلك الإرهاب الذي لا يعمى عن إدراك سريانه وتجلياته إلا المتواطئون أو الأغبياء الذين على عقولهم وقلوبهم أقفالها؟!

لم يُقدّر للأستاذ الوردي تلبية الشخوص لإلقاء عرضه، إذ وافاه الأجل المحتوم بغتةً، فحضرت مع عزيز مراسيم التعازي والدفن، وخصصنا محمود بعبارات المواساة تخفيفا من هلعه واضطرابه، وسلمته رقم هاتفي يستعمله في حالة تعرضه لمكروه.

*

ضيعة عزيز توجد في أرض فلاحية خصبة ببوزنيقة على بعد عشرين كيلومتر جنوب الرباط. رافقني في زيارتها تارة مشيا على الأقدام وتارة ممتطيين صهوتي فرسين. كان ببلاغة المهندس الزراعي يفسر لي التجزئات بين واحدة للقمح والقطاني بحسب الفصول، وثانية لغلال خضر وفواكه شتى، وثالثة أصغرها للأغراس ذات الروائح الزكية سماها بأسمائها العديدة. والكل يُسقى بماء بئرين صالح للشرب. كما تحوي

الضيعة ڤيلا فسيحة ومنزلا للخدم وإسطبلا للبهائم والماشية. وعلى أعوانه عرفني بدءا من رجل قوي البنية وزوجته وبنتهما الشابة وأخته.

وبعيد انتصاف النهار جلست مع مضيفي للغداء في ڤيرندا ظليلة، تخدمنا الأم وبعلها الرايس. خاطبته وأنا أقتات وأتنفس ملءَ رئتـيَّ الهواء الخالصَ النقيّ:

- أنت الآن يا عزيزي لا يمكن إلا أن تعد من البورجوازيين!

أجابني رخيَّ البال غير متحرج:

- ما العيب في أن أكون كما تقول إذا أنا خلقت الشغل لأناس ما أحوجهم إليه، وصنت حقوقهم كاملة غير منقوصة!

- لا عيب بالطبع... وقليلون ممن هم في وضعك يفعلون ما تفعل. فهنيئا لك بما كسبت.

- اشتريت الضيعة بمليون درهم من مالك كان في ضائقة مالية خانقة، وقيمتها الآن ضعف ذلك. وما كنت لأعرفه لولا وساطة صديق يعمل في مصلحة الضرائب. ترى إذن أني صرت مالكها بفضل صدفة سعيدة، أتمنى أن تحصل لك مثيلتها ذات يوم... أنت الآن تأكل من طعام بِيو، لأني في التخصيب والإنماء لا أستعمل أبدا المواد الكيماوية الضارة.

- بارك الله في عملك الزراعي اللي هيأك لكل ذلك.

انتقلنا إلى طاولة أخرى حذاء حديقة الأزهار حيث شربنا قهوة من صنف رفيع؛ وهنا فاجأني الصديق بالقول:

- البنت اللي رأيتها مع والديها... هي زوجتي...

لم أتمالك أن تعجبت:

- زوجتك!

- على سنة الله ورسوله...

- وامرأتك الأولى؟

- علياء قبلت ذلك باتفاق موثق. شرطها أن أرعى حقوقها ولا أطلقها. وكذلك فعلت. فصرت أوزع وقتي بين الزوجتين بالتي هي أحسن.

- وابنك، ما قوله؟

- تعاهدت مع أمه على تركه خارج الوضع الجديد، سيما وأنه سيرحل قريبا لمتابعة دراسته بكندا.

- وفارق السن بينك وبين زوجتك الثانية؟

- هي تقريبا ثلاثونية وأنا خمسوني، ولا مشكل في الفرق بتاتا... أما أن تلد مني فهذا ما أرفضه اليوم، لذلك ترضى بتناول حبات منع الحمل.

- كل شيء إذن على ما يرام... حياة حضرية مع الأولى وحياة بدوية مع الثانية، جمعت بين الحسنين، يا سعديك!

ساد الصمت بيننا فيما عزيز يشعل سيجارا ويقدم لي آخر مالئا كأس كونياك، ثم قال منفعلا بعض الشيء:

- أبوح لك الآن، يا يقظان، بسر لعلك به تتفهم وضعي الجديد وتعذرني... علياء أصيبت منذ سنة بسرطان الرحم، فتم لها استئصاله، لكن هذا الأمر أثر سلبا على علاقتنا الجنسية وجعلها مستعصية. تألمت المسكينة من دائها كثيرا، وتعيش اليوم في قبضة خوف شديد من أن يعاودها مرة أخرى في أحد أعضائها الأخرى...

- حسب علمي، نسبة انتقال سرطان رحم مستأصل إلى عضو آخر تحاذي الصفر، فاطمئن.

- هذا ما يقول الطبيب، ولو أنه يتجنب الجزم، أما زوجتي فلا حيلة لها حيال تغلب الهواجس عليها.

- أمِّنها وفوج عنها، ولا تجعل وضعك الجديد يؤثر عليها.

- ذلك ما أفعل، ولو أن الأمر ليس بالسهل.

رأيت الفرصة سانحة لأسرد عليه أهم قصصي النسائية المحزنة، فاهتبلتها مكتفيا بالخطوط العريضةِ البارزة، موردا ما

لا يعلمه عن زوجتي المتوفاة وعن مريم -مع كتمان سرها الرهيب- وزهرة ونوال. وكان من حين لآخر يستوقفني عند مسألة أو تفصيل، فأفسر وأفيد. وعقب قائلا:

- هي ذي الحياة بأتراحها الكثيرة وأفراحها القليلة، والزواج الميسور في سننا هو الحل على أي حال...

ترددت في إنبائه عن مولاتي عفراء، فأرجأت ذاك معوضا إياه بالحكاية عن الراحل عمر الماجد ونظريته في الحياة والتلذذ بها، فأعجب بها أيما إعجاب وأثنى على صاحبها وترحم. أما سفرياتي إلى الصحراء ومآربي فيها فأرجأتها هي أيضًا إلى موعد آخر.

دعاني عزيز إلى جولة على الفرسين وقادني إلى هضبة تمتعنا فيها بمشاهدة غروب الشمس، وبعدها فارقته شاكرا، مسلما على زوجته وأعضاء الخدم واحدا واحدا.

عودا إلى مستقري، انتابتني رغبة في كتابة اللحظات الممتعة التي عشتها رفقة الحاج الوردي وعزيز، فلبيتها عاكفا على تصوير انفعالاتي أثناءها، غير أن ما سطَرته بدا لي في آخر الأمر شبيها بمحضر أو تقرير إداري، تخونني فيه العبارة الشائقةُ الرائقة والبلاغة الحرةُ النيرة. فصحت في مدى سمعي: اليأسَ اليأس، ثم ضخمت صوتي صارخا: يا عفراء أغيثني!

في لقاء آخر مع عزيز، ناجيته قائلا:

- عفراء... امرأة مقطوعة من شجرة، يتيمة، لا أهل لها ولا وليّ. تبنتها أمّي شابة، ربتها كما لو أنها من صلبها. وحين حضرتها الوفاة أوصتني بها خيرا وألحت في الوصية. وبعدها انتقلت إلى خدمة بيتي الزوجي، وظلت كذلك حتى بعد موت حرمي وبنتي، ترعاني وتقضي كل حاجياتي...

كان الصديق ينصت إليّ بعناية. ولما ختمت كلامي قال:

- وأنت اليوم تنظر في جواز اتخاذها زوجة... قصتك مع عفراء تشبه من وجه قصتي مع عائشة، ولو أن أمرك أسهل لكونك غير متزوج بامرأة أخرى... اتكل إذن على الله، وخذ نصيبك من الزواج الحلال، سيما وأن أملك في نوال خاب تماما؛ ثم لا تهتم بفارق السن إذا توفر ما يكفي من الوئام والحب.

أجبته مطرقا:

- ربما معك حق، لكن لا بد لي من مهلة للتفكير... والآن ما أخبار صديقنا إدريس التيجاني؟

- يسافر كثيرا ويفوض في غيابه تسيير مكتبه إلى مساعديه، أضف إلى ذلك انهماكه في السياسة وشؤونها. أراد رئاسة "الحزب الاشتراكي" الذي ينتمي إليه، فترشح لها في

مؤتمر، وكاد يفوز بها لولا أن غريمه عبأ ضده لوبيات وكتائب فأسقطه وسطا على ولاية ثالثة؛ وهذا الغريم معروف باستبداده المتأصل وقدرته الخارقة على المناورة والتزوير... وقد يحدثك صاحبنا في التفاصيل حين نلتقي به.

لم أودع صديقي إلا قبيل منتصف الليل. ولما كنت في مدخل منزلي، شعرت بسكين ينغرس أسفل ظهري ثم يُستل. ولما التفتت تبينت طيف رجل يجري ويختفي في الظلمة، فلم أر فائدة في ملاحقته. وعوض هذا هرعت إلى مصحة قريبة حيث استقُبلت في قسم المستعجلات وتمَّ إيقاف نزيفي وتصوير مكمن الطعنة التي بشرني الطبيب بكونها جرت قريبا جدا من الكبد ولم تنله، وألزمني بالبقاء يومين أو أكثر تحت العلاج والمراقبة.

في الغد، طمأنت عفراء على غيابي، وبعدها أخبرت عزيز بالحادث فهب لزيارتي صحبة التيجاني. أخطرتهما بظروف الاعتداء، فعبرا لي عن أسفهما وأهاب بي الأستاذ إلى إفادة محضر الشرطة الجنائية وتسجيل دعوى ضد مجهول. وعدته أن أفعل عما قريب، ثم انصرف مباركا لي السلامة. أما عزيز فظل إلى جنبي يؤنسني ويواسيني، وما فتئ أن قال بصوت خافت:

- نجوت من الموت يا أخي! من تراه وراء الاعتداء؟

أجبت مغالبا تعبي:

- فكرت في الأمر بجد... لا أرى غير واحد... زوج نوال.

- وما حجتك ودليلك؟

- لا شيء عندي من هذا، إنما هو احتمال راجح نظرا لقصتي مع زوجته...

- إذن ستظل الدعوة بلا موضوع؟

- أظن ذلك، وعزائي في سلامتي.

- عين الصواب ما تراه. سلامتك أولا ونجاتك بروحك. فهنيئا لك وهنيئا لنا جميعا. لكن هذا لا يمنع من أن تسجل الدعوى... هل أخبرت عفراء؟

- لا داعي إلى ترويعها. أحكي لها ما جرى بعد أن أعود إليها.

أقبلت المسعفة معلنة نهاية الزيارة ووقت تناول الأدوية.

بعد رجوعي إلى منزلي، أنبأت عفراء بحادثتي فارتعبت وعاتبتني غاضبة وقالت:

- تطعن من الخلف، تعالج في مصحة ولا تنادي عليَّ! عيب.

أجبتها مهدئا:

- اعذريني مولاتي، كنت في حالة هلع وصراع ضد الساعة.

والآن وقد نجوت، أنا في حماك أمضي فترة نقاهتي حتى أشفى تماما.

ساعدتني على الجلوس فوق فراشي محاطا بأغطية ووسادات، شغّلتْ موسيقاي الأثيرة ثم قصدت المطبخ لإعداد طعامي ومشربي. أجبت على مكالمة من عزيز، فأمنته على حالي شاكرا، ووعدته بلقاء قريب بمجرد أن أستعيد عافيتي.

عافيتي أخذتُ أسترجعها بفضل خدمات عفراء المتنوعة. أسهر بعض الليل في حضنها، وأُصبح منتعشا بابتسامتها الوضاءة وحنانها البليغ. قربُها أمسى والسحر سيّان. والسحر يصير حلالا يوم أعلن لها حبي ورغبتي في اتخاذها شريكة عمري. وما بقي من عمري أرضى عنه ويكفيني إذا ما انساب في عشرتها خفيفا لطيفا ذا جودة معتبرة وهناءة. ولا شيء يمنعني من هذا ومنها إلا أن يأتي الوقت بإحدى الملمات وما ليس في الحسبان. ولما حل يوم الإعلان بعد إرجاءات مملة، ذهلتُ من طلب منحها شهرا للتأمل واتخاذ القرار.

انصرمت المدة تماما. وفي مفتتح الشهر الثاني، استيقظت مناديا على عفراء، فلا مجيب. فتشت عنها في أرجاء الدار والحي، فلا أثر ولا ظل. انتظرت أسبوعا عساها تعود من جديد، فلم تظهر. عندها قصدت مركز الشرطة، أشعرت الضابط بغياب فاطمة اللوزي في التاريخ كذا. قلت إنها خادمتي

منذ سنوات، وكشفت عن سنها وأوصافها الخِلقية؛ سألني إن كانت سرقت من منزلي أشياء ذات قيمة فنفيت، وإن أخذت متاعها فأثبتّ. وقعت على المحضر. سلمته رقم هاتفي مترجيا إياه بإنبائي إن جدَّ في الأمر جديد. قمت مسلما وانسحبت.

صرفت أياما أنتظر خبرا من المركز، فلا خبر. وبعدها كانت لي مكالمة مع عزيز، أحجمت فيها عن إبلاغه بمصابي، ذلك أني آثرت الانطواء على نفسي مستسلما لحزن شديد ما فتئ أن تحول إلى انهيار عصبي، كأني فقدت زوجة غالية أو بنتا عزيزة. فعاودني الأرق متبوعا بضغط الدم ونبضات القلب. استودت الحياة في عينيّ وغلب التطير والزهد. بتُّ أستثقل الحركة وإن صغُر شأنها، فأنغمس في التمدد على فراشي مراودا نوما لا يأتي. عبثٌ كل شيء في ناظريّ وأمرٌ مرير... حتى صديقي الأوحد عزفت عن طلبه والرد على نداءاته.

وفي يوم كان عبوسا مطيرا، مثل أمامي عزيز، فأنكر عليّ حالي وسلوكي، قال:

- لم يكن لي من خيار إلا أن أقتحم عليك بيتك. أطلت غيبتك. لا تجيب على الهاتف، وما افترضته يتبين لي الآن بالعين المجردة... نظراتك غائرة تائهة، بدنك هزل، وجهك شحب ولحيتك تخضبت بالشيب... ما هذا الافراط في تدمير

ذاتك! فإما أنك خسرت كل سهومك في البورصة، وإما أن عفراء هجرتك...

أجبت بلسان كليل:

- الملعونة فعلتها... هربت إلى وجهة أجهلها وبحثي عنها لم ينفع.

- وهل كنت تتوقع منها غير هذا. نسيت أنك تكبرها بربع قرن... ربما فرت إلى واحد في سنها أحبها أو إلى عجوز ورَّثها... والآن قم واستحم واحلق لحيتك، ثم نقصد الضيعة معا، ووالله لن أتركك حتى تستقيم وتبرأ.

عزيز، نعْم الصديق!

أسكنني في ملحق الضيافة، وعين في خدمتي حماته. الهواء في هذا الربع نقيٌّ لطيف أستنشقه ملءَ صدري، وأستسعفه في تطهيري من براثين التصدع والغم ونقلي من نقاهتي إلى شط الشفاء. أخذت أكد في محو عفراء من ذاكرتي وغضِّ الطرف والبال عنها وعن أيامي ومتعي في كنفها. لا بدّ لي من طي صفحتها. لا بدّ لي من التوثب والسعي في الأرض ومناكبها الوسيعة.

أمضيت في الضيعة زهاء أسبوع، كان مضيفي خلاله يقصد المدينة لقضاء أغراضه، ثم يعود إلى مؤانستي ومحاورتي،

مبشرا إياي بقرب زوال أزمتي، ودلائله عودة شهية الأكل إليّ وكذلك متعة المشي وركوب الخيل. غير أنه بات يؤجل ذهابي إلى بيتي حتى يستيقن من بلوغ شفائي أشده.

بداية الأسبوع التالي أزمعتُ الرحيل، فأقسم عزيز ألا أفعل، أيده حموه وحماته وكذلك زوجته، فمددت الإقامة بين هؤلاء الناس الطيبين خمسة أيام أخر، توثقت أثناءها علاقتي بهم وبالخدم، وكم أعجبت عندهم بصفاء النفس وبساطة العيش وقوة الإيمان ورباطة الجأش!

*

في منزلي عملت على تجاوز وعكتي النفسية ذات التبعات الصحية. اتخذت محمود الصياد وزوجته في خدمتي بعد أن طردهما من البيت ابن المرحوم الوردي، فأسكنتهما في ما كنت أسميه حديقتي السرية. أمرتهما بمساعدتي في تغيير مواضع الأثاث واللوحات الزيتية في صالوني على نحو يوحي ببعض الجدة وأرتضيه، وكذلك فعلت في غرفة النوم ومكتبي، وسيلحق التبديل مستقبلا الستائر وسواها. أريد من الآن فصاعدا أن تعرف حياتي منعطفا فارقا يدير سريانَه العقل والوجدان متضافرين، متناغمين، لا غلبة لهذا على ذاك ولا هيمنة.

ولن أنكر أن الفضل في دخولي ذلك المنعطف يعود،

رغم كل شيء، إلى عفراء التي وخزتني بتذكيري أني شارفت الستين وتجاوزت نقطة العد العكسي من عمري. وبالتالي لم يبق لي إلا أن أهتم بذاتي وأناظر نفسي محتفيا بكل اللحظات التي تمر بي، فأسعد بها ما وسعني الإسعاد. أما الكتابة المستميتة في احتقانها وتمنعها، فأقول فرحا متحررا لتذهب هي وأخواتها إلى الجحيم؛ لا حزنَ لي منذ الآن عليها ولا حداد. وأما الوقت فلن أتركه من اليوم فصاعدا يقضم حياتي ويزدردها أو يذهب بها عبثا وسدى، بل سأستمرئه جزيْئا جزيئا وأسير به إلى حيث تنمو هناءتي ونعمائي، ويُزهرُ بالطيبات والحبور المستدام.

كيف لا أذكر اليوم تلك الطعنة بالسكين أسفل ظهري من معتدٍ أراد حتفي! لو أنها تغلغلت وتقلّبت لكانت قتيلا أردتني. الموت كان أقرب إليَّ من حبل الوريد، غير أنه شاء أن يخطئني ويفوتني. وعليَّ الآن باجتناء العبرة من حيث إنه أمهلني إلى أجل لا أدريه، لكنه لا محالة آتٍ. إنما ليس عليّ أن أرتعب منه أو أُسكنه هواجسي ووساوسي. أقول مع القائل: ما لا يقتلني يقويني، أي على توقّي الموت العبثي يقويني، وعلى قهر مداخله الجارحة وأسبابه المتربصة الزاحفة. وما دونه ليَ الحياة بما رحُبت وجمُلت، وليَ التراييق بما تنوعت ونجعت. وبين هاته وتلك لي أن أترك فكري يركض كحصان تحررَ من حمله وقيوده.

ووافق ولوجي فضاء العزلة التأملية ذهابُ عزيز وحرمه إلى الحج، فدعوت لهما بحج مبرور وسعي مشكور، وأنبأني الصديق بأنه سيزور مدنا سعودية ومصرية لمدة قد تطول، وأوصاني بالإقامة في ضيعته متى أحببت.

أثناء غيبة هذا الذي لم يعد لي من صديق حقٍّ سواه، تفرغت لما ندبت له نفسي: إعادة نحت ذاتي بما يقوّمها وينعشها، وذلك على وتيرة يومياتي وأوقاتي. أداوم على القراءة حتى لا أجف أو يجذبني الفراغ إليه؛ أنصِّب نفسي راقعا فأحول دون أن يتسع عليَّ الخرق؛ أنصت لمعزوفات من موسيقايَ الأثيرة، وحتى لمقاطع من البلوز ولو أنها تحرك فيَّ لواعج الحنين والشوق. وحين أتوق إلى السلو، أرتاد نادي السباحة والرياضة أو أساعد خادمتي خدوج في الشؤون المطبخية أو بعلها في رعاية المسبح والحديقة. وبين نشاط وآخر أدوّن ما يعنُّ لي وأستسهله من أشعارٍ قصار وشذرات، أدخل ببعضها طوريَ هذا. قلت:

فحسبي ما وجدتُني عليه:

سِفرُ الصبرِ أنا وعينُ التجلّي

لي عند الفعلِ مقامٌ وغيرُهُ عند التملي

لي عندَ احمرارِ الشوقِ مقامٌ وغيرُهُ عند التروّي

فانهضْ إذن يا هذا وسُقْ أحاديثكَ مُسلماً وجهكَ للمطرِ

وتجرَّدْ للوعيِ كثيرا مُعرضاً عن الغمِّ والسّقمِ

وتجرّد للخفّة في الدورِ الأكبرِ

إنّ هواكَ اليومَ ميّالٌ إلى اللطيف الظلِّ والروح إلى المناظرِ المتفهِّمِ...

وقلت:

في زاوية لا لغطَ فيها ولا ٱلتباس، إجلس كما تشاء، واضعاً رأسكَ خارجَ أمكنةِ الدّبِّ والدِّحاس، ثم فكّر ملياً في دوائرِ الزمانِ على الخلائق، حتى إذا لويتَ على معنى دقيق وسرٍّ حقيق، حرّرهُ بالقلمِ الأمضى على ورقٍ رقيق، وإنْ لم تستطع فاجهرْ به في جمعٍ حفيل، ثم انتظر ما قد يأتي...

وقوَّلتُ وليّا:

يا مالكَ الصولة والعزة، قد عرفتني عبداً حنيفا شيمتُه السعيُ، أسعى إلى تغييرِ الفسادِ بالفعلِ فلا أستطيع، ثم أسعى بلساني فلا أستطيع، ثم أسعى بقلبي فيعتريه ضعفٌ يهدّدُ بالسكتة.

ـ 10 ـ

لم يبخل عليّ عزيز بالرسائل والمكالمات، وكلها تحكي عن أخبار حجه مع عقيلته وعن إقامتهما في مصر حيث عائشة تُسَرُّ بكل ما تراه، فتكثر من فغر فيها فيضطر هو إلى أمرها بغلقه. أما يوم جالت خلفه على ظهرِ جملٍ في الجيزه وحول الأهرام فكان يوما مشهودا. صرت أجيبه بما قلَّ ودل وأدعو للزوجين بالسلامة والعود الآمن.

ذات صباح، خطرت ببالي فكرة غاية في الغرابة، لكنها ليست مستحيلة التحقيق: أن أستأذن مدير مارستان الرازي في مجالسة بعض نزلائه بدعوى إجراء بحث قابل للنشر. عرضت الطلب عليه فاستشكله بادئ الأمر، ثم قبله ما إن عبرت له عن استعدادي لدفع تعويض مالي مقابل خدمة قد لا تتعدى يومين. شرطَ عليّ مبتسما أن أقصر بحثي على بعض النزلاء من دون التطرق لشؤون المشفى الداخلية. رضيت بالشرط وسلمته ظرفا سارع إلى وضعه في جيبه وعيناه تلمعان سرورا وغبطة. حدد الثلاثاء والأربعاء القادمين حيث تمنع الزيارات للعموم، وذلك للشروع في عملي على أن أسترشد دوما بالحارس قنديل.

صبيحة حلول الموعد، قابلني الحارس، وهو نفسه الذي كان يرافقني إلى غرفة الراحلة زهرة الزهراوي. ذكرني بشرط المدير وأضاف آخر يقضي بقصر الجلوس إلى رجال من الحمقى الطيعين دون الخطرين والنساء، ونصحني بتقديم نفسي بصفتي دارسا جئت للإنصات لا غير. وذلك ما فعلت بعد أن أدخلني غرفة وسلمني صفارة للنداء عليه عند اللزوم. وحين انصرف وجدتني أجالس شابا، فكشفت له عن هويتي وغرضي بما يلزم من الحيطة واللطافة. لم تكن في حركاته وسكناته ما يشي بأنه من فاقدي عقولهم. قال بعد أن تفرسني لحظة:

- دارس أنت! وتريد تدرسني، صحّ؟ هاتِ أسئلتك...

أطرقت مفكرا ثم سألت:

- ليه أتوا بك إلى هنا؟

- سلهم... يقولون مصاب بالاكتئاب المقرون بنزوع إلى العدوان الذاتي... يكفيك هذا؟

- آش يعني العدوان الذاتي؟

- تجويع الذات، سوء معاملتها... محاولة الانتحار...

- يصح عليك هذا؟

- يقولون ذلك... الانتحار لست ضده... حاولت مرة.

- والسبب؟

- حياة كلها ثقوب ومتاعب، هي كصخرة ضخمة ثقيلة ما فيش فائدة من دفعها كل يوم من الصبح إلى الليل... لا أقدر على العيش لا أقدر.

- كل هذا التشاؤم وأنت ما زلت في مقتبل العمر!

- هكذا خلقت ولا تغيير لما خلقت له...

- والأطباء ما حكمهم؟

- ما عدا المهدئات وحلقات الكلام المكرور، لا حيلة لهم في شفائي.

متحليا بالرفق أردفت:

- وماذا عن حالتك المدنية وسيرتك؟

- سعيد السعداني والبقية اطلبها من إدارة المارستان... سيرتي عادية. ليس فيها ما ينفعك، وما علمته عني يكفي لدرسي.

ثم فجأة ضجت الغرفة بقدوم ممرض ماسك بذراع نزيل، فمدده على فراشه وانصرف. قال محاوري:

- هذا الجار حتى لو استيقظ لكرر عليك ما يدعيه من أن الله أمره ألا يكلم الناس إلا رمزا... والآن قم بنا إلى مساحة

حريتي المحروسة، تعالَ إلى ساحة الحمقى نتفرج على شيء من غرائبهم وعبثهم...

جالسنا زمرة منهم على العشب تحت ظل سنديانة. لم يلتفت أحد إليّ ظنا منهم ولا ريب أني نزيل مثلهم. شغلت ميكرو مسجلة في كمي قد تنفع عند الحاجة. قال كبيرهم ذو اللحية البيضاء بصوت جهير بعد أن بسمل وحوقل:

- والآن، كما العادة، نستأنف بالتأمل صامتين وبأعين مغمضة وقلوب خاشعة على سنة الأماجد الأولين. وصمتنا هو أيضًا للترحم على من فارقونا إلى دار البقاء.

كذلك كان إلى أن كسر الشيخ السكون وقال:

- بالأمس تكلمنا بلغة فصيحة بينة، بها وبفضل الله محوت أهم الخلافات بينكم وجعلتكم على المحجة البيضاء...

وأردف جليس مندفعا:

- ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك.

فلكمه جاره بقوة وصوّت:

- لا حق لك في النطق إلا بإذن صريح من شيخنا الجليل.

وعقب الشيخ:

- بالنظام الرشيد ننظر في أمورنا وبالفتنة، وهي أشد من القتل، نمزق شملنا...

صاح الجمع مصفقين: لا للفتنة لا للتمزق! وسأل الشيخ:

- هل من مسائل أخرى أبث فيها وأرفع عنها حجب التنافر؟

قال أحدهم وقد وقف:

- أطلب دقيقة صمت للترحم على روح شريكي في الغرفة، انتحر فجر هذا اليوم. وإن لم تصمتوا تركتكم وشققت عصا الطاعة على وليكم...

تعالت أصوات بالشجب والتنديد، فمرق الرجل كالسهم من الرمية، فيما الشيخ يأمر بالانضباط والهدوء، ثم قال:

- سبق يا سادة أن نبهتكم إلى أن المنحر لا يصح عليه شرعا الترحم ولا الصلاة. فلنعد إلى ما كنا فيه هداكم الله وزكاكم.

قال مستأذن بالكلام:

- لماذا يا مولانا اختبل عقلي وكيف أعالجه؟

أجاب المسؤول:

- لأنك فقدت الوجهة والبوصلة، فأمسيت ترى كل شيء مقلوبا وعلى غير حقيقته؛ لأنك اليوم خطير على نفسك وحتى على الآخرين. وما عليك إلا أن تقنع بما يعطيك الطب وتتمسك

بعروة هذا الجمع إلى أن يقضي الله أمرا كان مفعولا...

وقال آخر:

- سألتك سيدنا من قبل هل ندخل نحن معشر المرضى الجنة، فلم تجبني.

قال الشيخ:

- قد تدخلونها إذا أنتم أطعتم الخالق بدل طاعة غرائزكم والشيطان، وأطعتم أولي الأمر منكم.

وارتفع صوت قائلا:

- لكن نحن أولى بالجنة للتعويض عن شقاوتنا في هذه الدار.

وصاح آخر:

- هل نحن في الدنيا حمقى وفي الآخرة عقلاء؟

أبدى الشيخ انزعاجه وقال:

- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾، هذا ما قاله تعالى، فلا تتعدوا حدوده، ومن فعل فدار البوار مثواه، وبئس المثوى... تذكروا أن من هبات ربنا هذي السماء الصافية الأديم وهذا الطقس الجميل وهذي الأرض التي تحملنا ولا تشكو من أوزارنا وقاذوراتنا... تنفسوا

الهواء الطاهر وكلوا واشربوا معترفين أن هذي الخيرات كلها وغيرها كثير لهي من نعم الله عليكم.

قال واحد ناعتا جليسا:

- هذا اللعين الجاحد كذبني لما حكيت له أني رأيت في المنام النبي موسى عليه السلام، ثم إن هذا النبي زارني بالعيان في مسكني، فحدثني بكلام لم أفهمه، ثم إنه ألقى أمامي بثعبان فإذا هو عصا، ثم أخذ العصا فذهب يهش بها على غنمه... أقسمت للمكذب بأيمان غليظة على ما شاهدت فلم يصدقني.

وعلق الشيخ:

- اعتراض صاحبك محق من جهة العقل. كلامك ما هو إلا توهم يعوزه السند والشهود، يذكّرني بمن جاءني يوما يدعي أنه رأى واحدا يجري مرة خلف ظله ومرة خلف مؤخرته...

تضاحك المتحلقون وصفقوا وقد ازداد عددهم. وقف أحدهم وقال:

- أقترح التصويت في أمر هل ألقى موسى بعصاه فإذا هي حية أم العكس...

قاطعه الشيخ صارخا:

- لا قرعة في كلام الله... هل من شؤون أخرى أعالجها؟

تناول الكلمة جليس على رأسه خرقة وبيده سبحة، قال:

- هذا الوافد الجديد جنبي لا أقبل يشاركني غرفتي. أتهمه بالكفر لكونه يدعي أن المسيح هو ابنُ الرب ومات على الصليب وبُعث من قبره قبل أن يصعد إلى السماء، وهذا يناقض مبدأ التوحيد المطلق في ديننا الحنيف وقول قرآننا الكريم: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾... ألتمس من شيخنا المبجل أن تدعم طلبي بفصل هذا المشرك عني.

استفسر الشيخ المتهم:

- ما قولك يا هذا في شكاية غريمك؟

فأجاب بعد أن استلطف الله كثيرا:

- والله أنفي التهمة يا سيدي نفيا تاما. كل ما هنالك، وحق المعبود، أني إنما في الليل أشخر كثيرا وتستولي عليّ كوابيس، فلفق شريكي شكايته حتى أفرغ الغرفة وأريحه مني.

قال الشيخ متوجها إلى الشاكي:

- بينتك باطلة والمتهم أنكر باليمين. قم واهجر هذا المجمع المبارك... هل من قضية نختم بها؟

استأذن رجل نحيف عليه سمة الوقار، قال:

- هناك مولانا شخص تعرفت عليه في هذا المارستان، لا

أراه بيننا، هو ممن تصح عليه الآية: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، وإذ رأيته كالبهيمة يجعل كفايته في الأكل والشرب والنوم ويزيد عليها بالإكثار من التجشؤ والضراط، سعيت طمعا في الثواب إلى تعليمه وتوعيته بوجوب رفع الجهل عنه، إلا أنه أبى واستكبر. فماذا عساني أفعل؟

اكتفى المسؤول بالقول: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾، صدق الله العظيم. وكان هذا إشارة لرفع الجلسة، فلحق بي الشيخ وبث في أذني: أهل الإدارة يسمونني أعقل الحمقى... لا أرى عليك أمارات الجاسوس، وإنما جئتَ للتفرج علينا وإشباع فضولك الغريزي... لم ينتظر جوابي بل جدَّ السير إلى مقصده، يتبعه مريدوه.

سألني مرافقي إن كنت رويت فنفيت.عندئذ ودعني على عتبة غرفة فيها، حسب قوله، نزيل مصاب بانهيار عصبي. دخلتها مسلما واستأذنت في الجلوس. كان الرجل في متوسط العمر، شاحبَ الوجه، غائرَ العينين، كأنما الحياة انسحبت منه بنسبة مّا. سألني بلسان ثقيل:

- سبب مجيئك إلى هنا؟

أجبت متوخيا التودد والطمأنة:

- تفقّد أحوال النزلاء لتحرير مقالات للدفاع عن حقوقهم.

أقدم الحارس قنديل، وضع أمام المريض صحن غذاء كلٌ لوازمه من البلاستيك. سألني قبل انصرافه إن كنت جائعا فنفيت. أبعد مضيفي الصحن وقال:

- تريد الدفاع عن حقوق المرضى، جاء آخرون قبلك وادعوا ما ادعيت، فظلت الأوضاع على ما هي عليه من سوء، فما عادوا وأنا أعذرهم، هم عاجزون عن شفائي وشفاء الآخرين... حتى الأطباء لا حيلة لهم معي سوى شحني بمضادات الانهيار وتقليل وعيي بما أصابني من إحباطات وخسارات في حياتي الخاصة وسيرتي المهنية... يلزمني زمن طويل كي أنهض، ولن يتم لي ذلك إلا وعمري قريب من النهاية... لهذا لا تتعب نفسك يا أخي. فقدت الرغبة في كل شيء وحتى في الكلام معك ومع غيرك... قريبا يأتون لوخزي. الحق أنك جئت إلى هنا فقط لتقيس حالك بأحوال المجانين، والآن وقد أمنت إذهب سالما...

أردت التلفظ بكلمات وداع فصاح مرارا بعدم رغبته. عندئذ غادرت غرفته مهرولا وقصدت باب الخروج حيث تسلم مني الحارس صفارته وقال إني هنا على الرحب والسعة متى أحببت.

صبيحة اليوم التالي هرعت إلى المشفى، تحركُ خطاي قوة عجيبة. على بابه استقبلني قنديل محييا مرحبا، أخذ مني

باقة الورد وبعض التفاح وقال: اسرح وامرح بيننا. صرت والله من أهلنا... يممتُ في التو غرفة الشاب سعيد. رد عليّ التحية وتسلم مني سلة الفواكه شاكرا، وتفوه بصوت هادئ:

- أراك رجعت! لم تشبع من رؤية مخلوقات مضطربة متقلبة... شيخ حلقة الأمس وجدتَه في يوم تعقله، أما في أيام أخرى فيدعي مرة قدرته على تفسير الأحلام، ومرة أنه رسول رسول الله. وأنا أظنه يلعب دور عميل مزدوج، يساعد الإدارة على تهدئة الحمقى وترويضهم. لهذا لا أحضر حلقاته إلا لأتسلى بكلامه وكلام أتباعه وأقلل من قنوطي في هذا المارستان.

أدركت في حديث الشاب اتزانا بينا ومنطقا لا يخيب، قلت:

- مكانك يا سعيد ليس هنا... ليش ما تطلب الخروج؟

- الخروج! إلى أين؟ إلى عالم الدحاس والهرج... أنا لا شغل لي، وأمي لا قدرة لها على أداء ثمن المتابعة الطبية والأدوية، وهنا على الأقل كل هذا بالمجان.

- لا شغل لك قلت؟

- إجازتي في الحقوق ما صلحت لي لشيء. أوقفت دراستي في التجارة. بحثت سنوات عن عمل يناسب ديبلومي فلم أجده. فسخت خطوبتي من فتاة أحببتها، وما عدت أرغب

في طلب غيرها. اسودت الدنيا في عينيّ ويئست، إسمي سعيد أحمله من باب الضد والخطأ... دعنا من هذا وتعال بنا نتفرج على الشيخ المزور والحمقى.

في طريقنا إليهم، نبهني مرافقي إلى نزيل جديد متعرم على عتبة بيته وقال:

- هذا الشاب مصاب بفصام حاد يفصله عن كل ما حوله... حاولت مرة الاقتراب منه فأطلق صرخات وفرّ.

كانت الحلقة في مكان الأمس نفسه، إلا أن الحضور بدوا لي أوفر عددا. كانوا، حين اقتعدنا العشب، منهمكين في قراءة سورة الناس بأصوات جهيرة يعلوها صوت الشيخ. همس لي سعيد: لا بد أن نبلغ في التلاوة الخمسين مرة... شاركنا معا فيها، وحين صمت القارئون افتتح الشيخ الحديث بعد البسملة والحمدلة، قال: نخصص الحصة بعون الله لتعبيركم الحر عن مطالبكم الأخرى بعد أن تحققت المتعلقة منها باستعمال الهاتف المحمول والحصول على الجرائد والكتب، وذلك حتى تظلوا متصلين بالعالم الخارجي خيره وشره. والإدارة كلها آذان صاغية، لكن قريبا قريبا من المعقول، بعيدا بعيدا عن الشطط.

تعالت أصوات مرددة: لا للشطط لا للشطط، نعم ثم نعم للمعقول...

قال واحد: يتفق الحكماء على أن العقل السليم في الجسم

السليم، أي لكي تصح عقولنا لا بدّ لأجسامنا من مقويات. والحق أننا تعبنا من السوائل والقطاني أكانت من صنف الحريرة والعدس أو الفول والملوخية... سحقا لها سحقا!

وصاح ثانٍ: لا بدّ لنا من اللحم، إما لحم البقر والدجاج أو لحم السمك والأرنب وفراخ الحمام...

وأضاف ثالث: أما لحم الغنم فضار إلا في العيد الكبير فقط.

وأردف رابع: أما الخضر والفواكه فهاتونا بها طرية وببواكيرها حسب الفصول.

وقال خامس: الحق في الزواج حق مقدس، والعزوبة شؤم ومنكر. لهذا نطالب الإدارة أن تسمح لمن أراد الزواج أن يعقده في عطلة يرجع بعدها إلى قواعده سالما متزوجا.

وقال سادس: وبعد تيسير الزواج، لا محيد عن تمتيع المتزوجين القدامى والجدد بالحق في الخلوة الشرعية، رفعا للحرمان والكبت، وتلافيا لشرور الأحلام الزائغة والاحتلام القاهر... ثم ما بال نساء هذا المارستان لا يجلسن معنا؟ هنّ شقائق الرجال، ونحن لباس لهنّ وهنّ لباس لنا. أليس الحق ما أقول يا قوم؟

وقال سابع: بالأمس، يا سادة، رأيت فيما يرى الحالم،

ولا حياء في الدين، أني على سجادة طائرة أنكح جسما ملائكيا هو الأبرز والأحلى. وفي الفجر أزلت جنابتي وأنا في منتهى الحزن والغم.

قال ثامن: وإن لم يتحقق هذا المطلب الحيوي، فحذارِ حذارِ من ثورة الحالمين والمستمنين، وحذارِ أكثر من غارات يقومون بها على جناح النساء، صغر أم كبر سنهن... أمثالنا في مارستان طنجة قاموا مؤخرا بفرار جماعي. فهل نُرغم على الإقتداء بهم؟ وهل...

قاطع الشيخ صائحا: بلاش تحذيرات، بلاش تهديدات... ولا تكونوا، رعاكم الله، كالذين اعوجت عقولهم وضلت، وبئس المصير.

وقال تاسع: بل إن عقولنا يا سماحة الشيخ ما اعوجت وضلت إلا بحرماننا من النكاح الذي أحله الله لنا شرعا وجعل لنا فيه ملذة وحكمة... كل من تطوع في الجمع للكلام إنما عبروا بلسان الكاظمين الغيظ والساكتين عن الكبت والقهر، وهم من أهل الحياء والحشمة. وإن كان من أحد يعارض المطلب فليرفع يده... وإذ لا معارض، فما عليك يا شيخ إلا البلاغ المبين والسعي إلى الإنجاز السريع...

صيّح المخاطَبُ وقد امتقع وجهه وارتعدت فرائصه: توبوا يا جماعة إلى رشدكم، واتقوا شرّ التشدد في المطلب والزيغ عن سواء السبيل، واتلوا معي أمره عزّ وجل: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾ ﴾. احفظوا هذي الآية الكريمة عن ظهر قلب، ورددوها في أنفسكم تسعا وتسعين مرة، حتى تشعروا بفضلها عليكم إن كنتم صادقين. ومن لم يفعل والله لأرجمنّه فيدوخ ويسقط والدم منه يسيل... رددوا الآن الآية خمسا وأربعين مرة، والبقية في ذمتكم توفونها في غرفكم بعون الله.

استجاب المأمورون، وبعد صمت طويل عاد رجل عاشر فقال: صدق سبحانه وتعالى... إنما ستطمئن نفوسنا فعلا في هذا المارستان بتلبية مطالب النزلاء كما صيغت، يضاف إليها تزويدهم بأدوات الترفيه والتسلية. وأملنا كبير في أن يرفعها عاجلا إمامنا الشيخ إلى أولي الأمر والتنفيذ، وكلها خير لإصلاح عقولنا وتطهير أمزجتنا من الأبخرة الرديئة، وخير البر عاجله.

انتفض الشيخ واقفا، وانسحب مهرولا يتبعه أزلامه. وتعالت أصوات بعض المخلفين: لا أكثر من فردين في الغرفة الواحدة. نعوذ بالله من الاكتظاظ... وتفرق الجمع فريقين متظاهرين، فريق يهتفون "لا للاكتظاظ وإلا الفرار" وآخر "أهلا

بالاكتظاظ ولا للفرارا"، هذا فيما واحد يطلق قهقهات منكرة تارة أو شهقات ضاجة طورا، فلم يهدأوا ويرجعوا إلى غرفهم إلا حين أقبل الحرس ملوحين بالهراوات.

طوال المدة التي استغرقتها الحلقة مع ما تخللها من لحظات صمت، كان بعض الممرضين والأعوان يمرون بها أحيانا متباطئين، ولا ريب أنهم إما ظنوا أني من أعضائها النزلاء، وإما تلقوا الأمر بغض الطرف عني.

ولما انتصف النهار عدت مع مرافقي إلى مستقره، فوجدنا أن شريكه فيها يغط في نوم عميق. قلت:

- الآن يا سعيد سجل رقم هاتفي حتى نكمل حديثنا وتناديني إذا احتجت أن أساعدك حسب استطاعتي.

تسالمنا بحرارة ثم يممت باب المغادرة.

"الحق أنك جئت إلى هنا فقط لتقيس حالك بأحوال المجانين، والآن وقد أمنت إذهب سالما". كلام المنهار عصبيا الموجه إليّ في المارستان، والله لا أصوب منه ولا أعقل! كشف لي عن أنانيتي وفضحها أمام عينيَّ ووعيي. وللتكفير عنها هأنذا أتوق إلى إعتاق سعيد بكل ما أوتيت به من إرادة ووسائل. سأسعى إلى أن يكون فعلي هذا حدثي وإنجازي،

أخلقه من دون أي منٍّ ولا إشهار. التوفق في إنقاذ شاب مما هو فيه من عسر وعصاب أريده مبعث اعتزازي السري وعلامة اقتداري على إسعاد فرد بعينه من لحمٍ ودم. فكرت في الأمر مليا وقلّبته من كل وجوهه واحتمالاته، فانتهيت به إلى كونه رهانا: فإما أن أنجح وذاك ما أبغي، وإما أن أفشل لأسباب قاهرة فأطمر القضية وأعذر نفسي. وقررت أتريثُ حتى يكون الشاب هو البادئ بمكالمتي وطلبي، فأستيقن أنه راغب حقا في شفائه وفي من يعينه على تحصيل صحة العقل والبدن معا.

ـ 11 ـ

في غمرة اهتمامي ذاك هتف لي عزيز لدعوتي إلى حفل عائلي يقيمه في الضيعة بمناسبة عودته وزوجته من حجهما. بادرت بالاستجابة وحمدت لهما السلامة مباركا وعبرت لصديقي عن فرحي بلقائه مجددا، فبادلني الشعور نفسه وأغدق عليّ من هداياه ما لم أتوقعه. شكرته عليها وسألته عن زوجته الأخرى، فقال مقتضبا إنها بخير، وأخذ يحكي لي عن سعادة عائشة بحجها وعن انبهارها الساذج بمآثر مصر ونيلها العظيم وكثرة الناس فيها. استقدمها وسألها عن بني آدم في مصر فقالت محتشمة: هاجوج وماجوج. وبعدها قصدتُ مع صديقي أهله وخدمه فسلمت عليهم واحدا واحدا ناطقا بالكلمات المناسبة، ثم ذهبنا في جولة راكبين فرسين، وخلالها سألته عن الأستاذ التيجاني فقال يوجد في بلجيكا، وقريبا يهجر عزوبته ويدعوننا معا إلى عرس زفافه.

بعيد تناول وجبة الغداء خطر لي أن أفاتح الصديق في مسألة الشاب سعيد وأستنصحه، لكني سرعان ما أحجمت مفضلا إرجاء ذلك إلى ظرف أنسب.

المكان الأنسب كان منزلي حيث دعوت عزيز إلى عشاء. سأل هل من خبر عن عفراء، أومأت بالنفي، وعما عرفته من أحداث أثناء غيبته، أجبته بسرد زيارتي للمارستان ومشاهداتي فيه، وركزت على حالة سعيد وما أنتوي فعله لإنقاذه، داعيا إياه إلى إمدادي برأيه، فتنفس واسعا وقال:

- قبل يومين في داري شعرت أن بالك منشغل بشيء ظننته أمر عفراء. والآن أنت تسر إليّ بما يدهشني ويحيرني... معظم الناس يبحثون عن التخلص من المشاكل وأنت تخلقها وتغوص فيها...

قاطعته متوددا:

- لا تهول الأمر يا أخي! إنما قصدي أن أنجز عملا حسنا حسبما أستطيع.

- لكنه عمل غير مأمون العواقب. الشاب مريض وإلا فما سبب وجوده في مشفى بين أيدي أطباء؟ هل تريد إخراجه منه وصرف لا أدري كم من مال لوضعه بين يدي طبيب خاص؟

- نعم، ذلك ما أريد وأقدر عليه إن كان فيه ما يعالجعه حقا ويشفيه. ووالله لو كلمته أنت لوجدته متزنا ولتساءلت عما يبرر وجوده بمارستان مليء بالمرضى من كل صنف، أكثرهم مختلون وشروط إقامتهم فيه سيئة.

- اترك مشكلته إذن لذويه، أليس له أهل؟

- له حسبما قال أمّ ولم يذكر سواها.

- طلبت مني رأيي، صح؟ أرى من الأفضل لك أن تنفض يديك من شأن قد تندم عليه إذا أنت تحملته.

- لم أفعل أي شيء بعد. تركت للشاب حرية قبول مساعدتي أو رفضها. وحتى إن قبل فما هي من طرفي سوى محاولة قد تنجح ولو بنسبة ما، وإن حصل العكس جعلتها وراء ظهري ونسيتها.

- كلامك لا يقنعني ورأيي قلته لك...

- أرجو تغيّره بعد أن تحاور الشاب... يعيش ولا شك مصاعب لكنه غير ميؤوس منه. وعموما اطمئن، سأستخبر عنه ما استطعت وأعلمك بما يجدّ في الأمر...

ساد صمت بيننا تخللته نغمات موسيقى هادئة، وحين انتقلنا إلى عريشة الحديقة حول طاولة مشروبات عاد ضيفي إلى محادثتي، قال:

- صديقنا إدريس التيجاني يدعوني إلى حفل زفافه موفى هذا الشهر، وبالطبع الدعوة موجهة إليك أنت أيضا، هي ذي بطاقتها. وحضورنا كما يقول ضروري ومؤكد. إنما أرجوك لا تفزع إذا علمت أن العروس هي زوجتك السابقة نوال.

اعترتني هزة أحدثت في قلبي خفقانا غير يسير. سألت متعجبا، مغالبا انفعالي:

- نوال! نوال النهري... نشرب على نخب العريسين... وزوجها الأول، ماذا حلّ به؟

- كان يعيش ببيس ميكر، حسب قول التيجاني. ألمت به أزمة قلبية حادة فمات على إثرها.

- وبنتها؟

- انتقلت إلى باريس لإكمال دراستها... وإياك تقول لن تحضر.

- بالطبع لن أحضر. لا رغبة لي في ذلك.

- بل تحضر يا أخي. غيابك قد يؤول بما لا يفيدك. أما تلبيتك للدعوة فهي دليل على أريحيتك ورفعتك. ثم لا تنس أن ما شاركته مع الست نوال ليس بالهين، وإن وجب اليوم نسيانه.

- دعني أفكر في الأمر. أعطيك جوابي الأخير عشية الموعد.

*

ليلة الزفاف في فندق سوفيتل، استقبلني العريس بحفاوة بالغة، وخصني وعزيز بإحدى طاولات الضيوف المميزين.

هنأته على زواجه وعبرت عن متمنياتي له ولقرينته بالسعادة والصحة. طقوس العرس كانت بين التقليدية والعصرية، والأغاني من كل فن طرف، وكذلك الرقصات النسائية الصرفة التي تلتها المختلطة بين الجنسين. ولمن أحب بين الضيوف شرب الخمور فقبلتهم مكان مستور لا تخفى على العارفين دلائله. وكان المضيف يطوف على الطاولات مبديا ابتهاجه وموزعا عبارات الحفاوة والترحيب، وحين أقبل على طاولة المميزين استقدم عروسه، فوقف لها هؤلاء مسلمين مهنئين، وأنا ضمنهم، فيما المصورون وعزيز يلتقطون لنا صورا شتى. وبعدها سرتْ بين القاعدين كلمات اللياقة والتعارف، خمسة رجال أعمال وزوجاتهم، لكل واحدة بفضل المساحيق نصيب مّا من الجمال والقبول.

ولما مال جو الغناء والرقص إلى السخونة والاحتدام، أخذني عزيز من ذراعي وقادني إلى ما أسماه "مربع الرؤوس الفرحة". اقتعدنا كرسيين عاليين حذاء المبسط ذي الأضواء الخافتة. طلب رفيقي زجاجة دْحين وزجاجة عصير البرتقال. همس لي وهو يرشف كأسه الثالثة:

- هنا على الأقل لن ينظر إليّ أحد على أني أرمل أو مطلق أو أعزب، وهذا يصح عليك... في البارات الجيدة تنشأ حميمية خالصة، أكاد أقول أخوية. وغالبا لا نميمة، لا تأثيم

ولا عيون رقيبة. ما يجمع الندمان هي خمر صافية راقية، وكلّ واحد يشرب على نخب الآخر، ويتمنى له الصحة والعافية... إيش رأيك في الجو اللي احنا فيه؟

أجبته ملاطفا ومتجنبا إفساد بهجته:

- الجو كما وصفته، وأنا قليل المعرفة به.

لاحظت أنه يسرع في الشرب، فقلت:

- خير الأمور أوساطها، يا أخي الحميمي.

فلامس بكأسه كأسي وعلق:

- لم أصل بعد إلى وسط الزجاجة، وأنا أعرف حدي.

ثم شرب على نخبي ونخب من بجواره. ملت عليه وقلت:

- تسمي مكاننا هذا مربع الرؤوس الفرحة، وأنا أسميه مربع الرؤوس الطائشة بين رنين الكؤوس ونفث الدخان المتصاعد.

فأجاب مزهوا:

- أحسنت، فلتكن الرؤوس الطائشة بالفرح والخفة...

شعرت بشيء من عدوى السكر ينتقل إليّ، فهمست لصاحبي:

- ما كان لي مع نوال ليس بالسهل. مسلسل حياتي معها

يمرّ الآن أمامي حلقة بعد أخرى... كل الذكريات تنغل في رأسي، تستفزني وتفور.

فرفع كأسه في وجهي وصاح:

- لكن السبق يبقى لك يا فحل! حياتك والله رواية مشوقة، رائعة، فمتى تكتبها؟

وسأل جاره:

- متى يكتبها؟

فرد المستفسَر:

- لما يتخلص من وساوسه كلها ويستعين بالسكر الصحيح...

بعد تجاوز انتصاف الليل عدنا إلى طاولتنا. لم نجد من المميزين إلا واحدا وعقيلته. تجاذبنا معهما شيئا من الحديث، فيما الخدم يقدمون لنا أصنافا من الطعام، نلنا منها ما قدرنا عليه. وبعد مضى بعض الوقت، عادت الموسيقى إلى ملإ الفضاء بأنغامها، صاحبتها رقصات الراقصين على إيقاعاتها، فتعطل الكلام بيننا إلا برفع الصوت؛ ثم إن العريس دعاني وعزيز إلى منصته لأخذ صور معه وعروسه على حدة، فلبينا. ترجاني رفيقي أن نعود معا إلى المربع المستور، فقبلت بغية نهيه عن الزيادة في الشرب. بعد ساعتين تقريبا كفَّ عنه،

فأقنعته بتوديع مضيفنا ورجوع كل منا سالما إلى مأواه في هذا الهزيع الأخير من الليل.

حين أصبحت منتصفَ النهار، لاحظت أني نمت نومة عميقة، كأنما سكر مرتادي المربع المذكور قد مسني وأثَّر فيّ. تناولت فطوري وقمت بأعمالي الاعتيادية وأنا ألحظ غلبة نوال عليّ عبر صور ذهنية وأخرى ضوئية، وإني أعوّل على كرور الأيام لإتلافها وجعلها كأن لم تكن.

مساء يومه الأحد تلقيت مكالمة من الشاب سعيد، أخبرني أنه غادر المارستان إلى أمه، وذكرني باقتراحي مساعدته للتغلب على صعوباته، وقال إنه يطلبها الآن ويشكرني عليها مسبقا. أجبته أن ذلك لن يتم إلا بعد أن أجالسه مرة أو أكثر للنظر معا في الحيثيات والشروط، وحددت له موعدا لبعد غد على الساعة العاشرة صباحا في سطح مقهى باليما. وحين قابلته تجدد لدي انطباع أنه واضحٌ سويّ، إذ يتكلم باتزان وليس في حديثه ما يخرق المنطق أو يحيد عن الجادة. وحتى أستيقن أكثر سألته في ما لا أعرفه عنه:

- سبق أن أشرت لي إلى أمك. هل لك أب وأهل؟

أجاب بعد أن استأذنني بالتدخين وطلب فنجان قهوة جديد:

- أبي مات وأنا صغير السن. الصور وحدها تدلني عليه. أما الأقارب: عمّ وخال وبعض الأباعد وعلاقتي معهم فاترة.

- وعلاقتك بأمك، كيف هي؟

- لا بأس... تقلق لحالتي وأنا أحاول التخفيف عنها، سيما وأني وحيدها. لا تبخل عليّ في شيء. تقنع بدخلها المتواضع من وظيفتها في شركة تأمين ولا تطلب مني إلا إتمام دراستي والحصول على الماستر في التجارة... عمري اليوم سبع وعشرون سنة ورغبتي أن أرتبط بفتاة تعوضني عن أخرى هجرتها...

قاطعته سائلا:

- هذي الأخرى هجرتها أم هجرتك؟

- الحقيقة أنها هي التي قاطعتني، غير أن كبريائي يقول عكس ذلك. على أي حال الأمر لم يعد يهمني.

أعفاني الشاب بمعلوماته المقتضبة من طرح أسئلة كانت تدور بخلدي. تجنبت محادثته في حالته النفسية ومحاولته الانتحار، وبدوري أمددته بما قلّ من أخباري، ووعدته بمد يد العون إليه في شأنين: متابعة دراسته وحضور حصص محلل نفساني أخصائي، على أن ينبئ أمه بذلك ويستشيرها. توقفت إذن عن تطويقه بأسئلة أخرى حتى لا تتحول الجلسة إلى

استنطاق، لكني ختمتها باستفسار واحد:

- يا سعيد، هل ترغب حقا في أن تتعافى وتبرأ؟

ردّ عليّ بلهجة جادة:

- إن أجبتك أستاذي بلا فمعناه أني أحمق.

عقبت مطَمئنا:

- إذن خذ هذا الشيك، انفق منه لمتابعة الدراسة كما تريد أمك ولقضاء حاجيات أخرى، أما الطبيب فهو ذا اسمه وعنوانه، وسأطلب لك موعدا معه أبلغك به... أوصيك بالمتابرة على لقاءاته كما يحددها لك.

إحمرَّ وجه الشاب من شدة الانفعال، قال:

- أشكرك سيدي جزيل الشكر. إنما لي طلب واحد، أن تعتبر المبلغ دينا في عنقي أرده عليك بمجرد ما أنهي هذه السنة الأخيرة في المعهد وأجد عملا داخل المغرب أو خارجه.

- فليكن... أما تعويضات الطبيب فهي على حسابي... الآن عليك بالذهاب حتى ترتب أمورك وتحدث أمك.

استقام المأمور واقفا وقبّل كتفي ثم انصرف.

هذا اللقاء مع سعيد أكد لي أن فضاءه الطبيعي هو الحرية وأن رهاني على إنقاذه أخذ ينحو نحوا مشجعا، وبهذا قد أُخبر

عزيز حتى يعرض عن موقفه السلبي من رهاني ذاك أو يليِّنه.

صباح الغد، تلفنت لطبيب نفساني، أحد معارفي القدامى، أنس الساحلي، عرضت عليه طلبي بخصوص سعيد واضعا إياه في صورة حالته وعلاقتي به، فرحب بالعرض وحدد المواعيد بمعدل اثنين في الشهر، وألح على مقابلة أمه لأخذ شهادتها، وبعدها تكون مقابلتي في الشهر الموالي. أبلغت هذي المعلومات إلى المعني بها وذكرته بوجوب مراعاة المواعيد. وحين أتى دوري استقبلني الطبيب بحفاوة فائقة، وبادر إلى إهدائي كتابه الجديد عن اللاجئين السوريين في المغرب وحالتهم النفسية. أجزلت له الشكر على هديته ووعدته بالقراءة. حدثني في هذا الموضوع اختصارا فقال:

- حالتهم جدّ سيئة تتطلب أطباء ومتطوعين كثيرين... قصرت عيناتي على مدينتي الرباط والدار البيضاء، وبعثت ببعض طلبتي إلى مدن أخرى للتقصي وأخذ الشهادات... كلهم يشتكون من صدمات اللجوء القسري وفقدان الجذور، ومن شعورهم المرير بانسحاق كرامتهم وعزتهم في سبل التشرد والتسول وتحت ضغوط الفقر والاحتياج.

- والله، يا أخي أنس، قد رأيت أُسرا منهم يفترشون أرصفة في باريس وحالتهم تقطع الأكباد، ولا شك أنهم كذلك في مدن أوروبية أخرى.

- هذا ما جناه الأسد على شعبه، إذ قتل الآلاف المؤلفة من المدنيين العزل بالغازات الكيماوية وبراميل النفط الملقاة عليهم من الجو. فكيف لا يهرب الناس من جحيم نظامه بالملايين إلى بلدان آمنة حفاظا على أرواحهم دون أملاكهم وأمتعتهم!

قلت وأنا في بالغ التأثر:

- بارك الله في ما تسديه إليهم من عون معنوي وآخر مادي، بحسب استطاعة فريقك ومتطوعيك.

وعقب مبشورَ الوجه:

- وأنت يا كريم، جزاك الله خيرا على ما تقدمه لنا من إسهام مالي مع آخرين من طينتك.

- لا تفضحني يا دكتور... والآن ماذا عن سعيد؟

أجاب جليسي منبسطا:

- صدق قولك. مكانه ليس في المارستان، حالته كحالات شبان عالجتهم بالعشرات من قبل وما زلت... يعاني إلى حد ما من افتقاد الأب، وله مع أمه علاقة متقلبة، مرة ودية ومرة متوترة ربما بسبب ذكريات طفولية عن سوء المعاملة بين الزوجين، وستمّحي تماما مع مرور الوقت. أما علاقاته الغرامية فيطبعها شيء من الاضطراب... حكى لي عن ارتباطه بفتاة ما

فتئت بعد مدة أن تخلت عنه لتتعلق بواحد من أصدقائه، وقد أثر فيه هذا كثيرا، إذ صار قليل الثقة بنفسه، يعرض عن أي رابطة عشقية أخرى. وقوى هذا النزوع فشله في إيجاد عمل يناسبه. استقبلت الشاب ثلاث مرات وأمه مرة. وعما قليل ستتضح لي رؤيتي وأتأكد من فرضياتي. ولكن، يمكنك منذ الآن أن تطمئن. حالة سعيد ليست خطيرة.

أبديت لمخاطبي أمارات الارتياح، سألني وهو يودعني:

- هل حقا وعدته بمساعدته على إتمام دراسته؟

أومأت بالإيجاب، فأردف:

- هذا أحسن فعل يعجل بشفائه، ولا أستغرب هذا الفعل منك... حديثه عنك كله إجلال وتمجيد. لهذا لا أعجب أن يتبناك كأب، أو يطلب منك ذلك.

سألته عن مبلغ مستحقاته فقال مستغربا:

- خيرك سابق وتستفسرني عنها! الدرهم الرمزي يكفيني.

في الخارج شعرت بانشراح غامر، كأنما فعلي الحسن في حق سعيد على وشك أن يُؤتي أُكله ويبلغ المراد. قصدت بيتي جذلان، ولما دخلته وجدت على حاسوبي رسالة من الشاب يشكرني جزيل الشكر وينبئني أنه استأنف دراسته متشوقا وأن أمه تكاد تجن من الفرح وتبلغني اعترافها بالجميل وامتنانها.

أجبته على الفور ناصحا إياه بالاستمرار في عيادة الطبيب حسب طلبه ومضاعفة الجهد في التحصيل، لكن من دون أن يفرط في أخذ نصيبه من بعض المتع؛ ثم خايلتني فكرة التبني، فقلت في نفسي لِـمَ لا شريطة أن أنظر فيها مليا وألا أستعجل تنفيذها.

في الغد، عكفت على قراءة كتاب الدكتور الساحلي، فهمني فيه شقه الاستطلاعي والاستجوابي وما ورد ضمنه من تحاليل نفسانية بليغة، ثم عرجت على بعض النصوص التي ظلت في انتظاري، فعلى تدوين أفكار استحسنت ألا تذهب سدى، كما يحصل لي أحيانا. وقبل نومي ظللت أفكر في شخصية ذلك الطبيب، فترسخ في ذهني أنه إنسان ذو أريحية وحس إنساني عزّ نظيره. رجل ملتزم بامتياز، لا يرى للاعتزال ولا للتقاعد مكانة أو معنى، إلا أن يحلّ سن الوهن والإعياء. وأعلم أنه عالج شبابا فقراء جانحين بالمجان، وانتمى إلى منظمة أطباء بلا حدود، وساهم في جمع التبرعات لفائدة اللاجئين السوريين، ولا شك أن أنشطته الأخرى تخفى عليّ. فعندي أن هذا الرجل المثالي إنما يجد سعادته في إسعاد الآخرين وفرحَه الأسنى في إنجاح مساعيه. وأحسب أن لي قسطا، مع وجود الفارق، من طبعه هذا ومقدراته. وإنه ليغمرني حبور نوراني حين أتوفق في إنجاز ما أسميه "الفعل

الحسن"، ومنه ما أحاوله اليوم مع الشاب سعيد حتى يُعافى ويقوى على تدبير حياته وترقيتها.

في لقاء آخر مع الدكتور الساحلي حول عشاء بمطعم دعاني إليه، طمأنني مجددا على حالة سعيد وتدرجها نحو الأحسن. بدا لي أن أعيد مفاتحته في حالتي الخاصة، لكني أحجمت لكونه -كما عبر لي ماضيا- يثق في قدرتي على التداوي الذاتي ومغالبة القلق الساري في طبعي. وكأنه قرأ في ذهني قال:

- أنا أعفي من متابعتي كل من آنست فيه طاقة حيوية متجددة، تظهر في إقباله الحماسي على الحياة العملية أو في شغل الدماغ والوجدان بالقراءة والكتابة والرياضة، وهذا هو حالك؛ أما حالات الذهان والعصاب فلي عليها استطاعة تحليلية غايتها العلاج أو التخفيف...

عقبت:

- وإذن مقياس التمييز والحكم لديك هو دينامية الحياة واتقاد جذوتها، فإن حسُن منسوبها عند الفرد قصّرتَ أمد استقباله ثم صرفته بسلام، وإن ضعف وتخلخل جعلت المصاب في دائرة عنايتك واهتمامك.

في تعقيبي شعرت وكأني أناجي نفسي وأمنيها بقرب

خلاصها من رواسب مرضية؛ أما سعيد، حسب شهادة الطبيب، فقد بدت لي تباشير شفائه لواحة في أفق منظور... سمعت الجليس يعاودني بالكلام:

- وهو كذلك... وهناك فئة أناس هم "متعبو الحياة"، كما يصح نعتهم، يطلبون من المحلل النفساني الانصات إلى تعابيرهم عن تعبهم اليومي منذ الاستيقاظ ومللهم المستدام، أكثرهم ممن وصلوا سن التقاعد، وبعضهم ممن مارسوا مسؤوليات سياسية ثم انقطعوا عنها طواعية أو مكرهين. لم يؤمّنوا قواعدهم الخلفية، فوجدوا أنفسهم جراء ذلك أمام فراغ هائل يجثم على صدورهم ثقيلا كالصخر؛ فهذا يدبر حاله بشتى أنواع التلهيات، وذاك لا يجد متنفسا إلا في الإدمان على العزلة أو التدمير الذاتي، وآخر يتعاطى التدين المفرط.

أدركت من كلام الطبيب أنه يشير إلى فئة أناس عرفتهم عن كثب، فقلت:

- أحسنت والله الوصف!

- وهناك فئة الذين شاخوا سنا وفكرا، أو أحدث لهم الزمان معاطب في أجسادهم. وبعض هؤلاء جميعا هم أيضًا من زبائني، أباشر حالاتهم كما هي وأعرض من الحلول ما أستطيع.

ألهانا الحديث عن الأكل فأعطيناه حقه خلال لحظات صمت لطيف. وبعد أن فرغنا أكرمني السيد الخبير بملاحظة نزلت عليّ مكرمةً وسلاما، قال:

- لعلك تدرك الآن يا أستاذ الفرق بينك وبين من ذكرنا؟

أشرت أن نعم، ثم قمنا نمشي في حديقة المطعم، سألته عن السوريين، أنبأني بم سرني أن أعدادهم تخف، بعضهم يتوجهون إلى أوروبا وخصوصا ألمانيا، وبعضهم يتهيؤون للعودة إلى وطنهم أو بلاد مجاورة. عبرت له عن استعدادي لمتابعة مد يد المساعدة، فشكرني ثم افترقنا على أمل اللقاء مجددا.

ـ 12 ـ

سبق وأنْ أشرت إلى ولعي بالرحلات إلى مدائن الصحراء ومواقعها الوضاءةِ الخلابة. فالصحراء مهد الديانات التوحيدية في المشرق، ومنشأ أهم الدول وأحدُ منابت الحكماء والربانيين في المغارب. وكان لي في ذلك مقصد التطهر بالهواء الحر والتأملِ في الخلائق والملكوت؛ ولي في رحلاتي تيك مآرب أخرى، أعزها وأجداها الجلوس في حضرة امرأة مباركةٍ اسمها جمانة، من آل لمغافرة، خصَّتها الطبيعة بميزات وشمائل لم تجتمع لسواها: آية في الحسن، وافرة السمرة، حوراء، أسيلة الخدين، ناعمة النظر، إذا نطقت أنطقها الإلهام غالبا بالسجع والمجاز، وبالفكَرِ الأصيلة المؤثرة، وإذا أنشدت شعرا حسانيا من إبداعها تضوع المسك منها، وسحرت الألباب والأفئدة. تزوجت مرة ثم ترملت فكثر خطابها، غير أنها أقسمت أن لا تعيد الكرة، ولو أنها ما زالت دون متوسط العمر. أحَبّها قومها وشبهوها بزرقاء اليمامة، بيد أنها تنكر على نفسها صفة العِرافة، متعللةً بكون علام الغيوب هو الله الواحد الأحد، وأن ما يأتيها من ذلك إنْ هو إلا قرانات ومصادفات

ليس إلا. وكانت هذه الغادة العجيبة إذا رقصت رقصة الكَدرة بخمارها الأسود، وخلفها حلقة المرددين والناقرين على الطبل والمصفقين، علقت بها عيون الرجال، وأنا منهم، وحتى النساء، فحسبتُها -والله- تلامس الأرض بمقدّم قدميها وتحرك من تحتها ريحا لينةً رهواء، كأنها تبغي التحليق، ثم تسرّح ذراعيها طليقتين ويديها وأناملها كما لو أنها، على وقع النغمات والتصويتات، تزركش الفراغ بعلامات بديعة، تميل لها أطرافها الزكية يمنةً ويسرة وأماما ووراء. وبعد انسحابها خلفتها راقصات أخريات، وهن -والحق يقال- دون فنيتها العالية وإتقانها البليغ المتفرد.

ومما شاع وتردد من كلامها النيّر وحفظته كغيري عن ظهر قلب:

أجنُّ في غزارةِ الوردِ والحياة، وقميصي صفحةٌ شهادة، يأتي إلى الأحبابِ مع الفجر في هبّةِ ريح، يأتي عَلما للمحبين وشراعا للقاربِ المبحرِ في النورِ إلى أرض الأجداد الأماجد...

ومن كلامها الذي ينفعل له القوم ويصفقون، عنوانه "استرجعت صحرائي":

الذينَ تربعوا ضدي، نسفتُ قوامهم وآفاقهم،

وانتهيتُ بأحجامهم إلى التفككِ الشديد

كبرتُ فاسترجعتُ صحرائي؛

أقمتُ ظلي حيثُ مشيت، وتاريخاً لنموي في موطني.

فما أسعدني بما لا زمني!

لا زمني إخبارٌ عن بركانِ شعبي أثلجَ صدري،

لا زمني صوتٌ نبويٌّ وفألٌ حسنٌ.

حسنٌ أنْ تعاطيتُ الريادةَ والفراسة،

حسنٌ أن أعشقَ وألاحقَ،

حسنٌ كلُّ شقٍّ وكلُّ فجٍّ وكلُّ انتشار،

أسيرُ وأنتشر، أسيرُ وأزدهر،

ثم أنضوي في عرضِ الصحراءِ المبشرِ باليسرِ والسلام

وبغيثِ الأمطار...

ومن كلامها الشطحي:

غداةَ غيبتي أتاني المحبوب،

جسماً شائقا، روحا بهيّةً ومعينَ عشقٍ وحبور،

وبالتقبيلِ والحنانِ غطّاني،

أتاني وأهداني وردةَ نرجسية

أكمامها نورٌ على نورٍ ومرآةٌ حجرية

وعن نزهةِ النفوسِ حدثني،

حدثني عن الحبِّ والأمانِ في البرية

عنِ المياه:

المياهُ وانبثاقُها، غداةَ غيبتي، من الأعينِ والشفاه،

تعاليمُ المياهِ أحكامٌ تجرفُ الأحزانَ وآلامَ الأيام،

المياه: في عنفوانها يولدُ البدءُ والإنسانُ الإمام،

ويحكي في أوجِ الدفقِ والعطاء

عن حياةِ الأساليبِ والأشكال

ويقيمُ للأصولِ الحفلَ والمهرجان...

*

كل مدائن الصحراء المغربية عزيزة عليّ، لكنَّ حاضرةَ العيون أمست موئلي الأعز بفضل السيدة جمانة وانجذابي إلى حضرتها والإنصات إليها. وكان أن شرعت وقتَ اعتزالي، أكتب ما يعنُّ لي في طلبها، ومما قلت ذات مرة: تفقد روحي مجاذيفها بين المطرقة والسندان، وفي حمأةِ القسرِ يشكو

القنوطَ جلديَ المغموم، يشكو المأزقَ المعتم، أما دمي فيبحثُ عن فورةٍ ونضارة؛ أحلمُ أن تأتي وتبثي بلسما في جرحي، أحلمُ أن تأتي يومَ روعي أنثى وحدثا يكونُ لي عيدا... الراجعُ الهاربُ من يومِ انكسارهِ إليكِ أنا، أنا الفقير إليك، يا أنتِ وملجئي، يا سندي وقبلتي الأخرى...

في العيون، ها هو أبو علي من قبيل ماء العينين، كنت على معرفة به، يشفع لي في مجالسة جمانة لمحاورتها بحضور أمها. وكان اللقاء عشيةَ يومٍ أغرّ سميته "يوم شافهتني".

حول صينية شايٍ صحراويٍّ أصيل، حلوٍ ساخن، جالست إذن مطلوبتي، أشرب من كأسي كلما ساد الصمت بيننا، أو أرمق الأم بيضاء الشعر والحاجبين، فيما هي على بعد بضعة أمتار ترقبني من طرف خفي أو تغطُّ في نومات متقطعة.

وبعد ما لا يقل عن ربع ساعة، سألتني الجليسة:

- ممَّ تشكو؟

أجبتها ميالا ما استطعت إلى لغتها الأثيرة وشاعرا بفيض قريحتي:

- بين حينٍ وحين، يا مولاتي، ضيقٌ غريب أفاجيءُ النفسَ فيه متخبطة، ضيقٌ أحاول دوماً ضبط مصدرهِ أو علّته، فأخيبْ.

سكتت لحظات ثم قالت:

- أفصح...

رمتُ الإفصاح حسب جهدي، قلت:

- حشرات قلقي السوداء، لا الغطس في الماء خلّصني منها ولا الغوصُ في الأشياء... حشراتي ذاتُ النّفثِ والرقطِ في الذّهنِ والأعضاء لن يكون لي منها الخلاص إلا في حماك أنت، أو في عطرِ مداك. مولاتي أمُّ النّظر البعيدِ ودفقِ العطاء، سيّدَةُ النفوذِ البليغِ وكلِّ البهاء، أميرتي ذاتُ الحوّاسِ اليقظى التي أراها تطبنُ دفئاً ما ألطفهُ وأحلاه، معلمتي التي تروي قصصَ الأفراح والأتراح من سفرِ الحياة، وتفاجئُ النفسَ بما يسرها، أو يسربلها بهواءٍ كأنّهُ من جبالٍ شامخة آت، أو من أعالي المياه.

اعتصمت المرأة بصمتها مجددا، ولما كسرَته قالت:

- عمَّ تبحث يا عشيرَ المعاني والكلمات؟

تريثت قليلا ثم أجبت:

- أبحثُ عن وجهٍ صبوحٍ آخذهُ بينَ يديّ، أستضيءُ بهِ؛ عن وجهٍ أتملّاه، أغوصُ بنفسي في طلعتِه وشذاه. أبحثُ عن وجهٍ مفدَّى، ظليلِ اللّحظِ عديمِ الغَمّ، وجهٍ لحبيبٍ سريع

الفهم، يصحبني إلى حقول الحبِّ في دنيا الله...

سوت السائلة حجابها وعباءتها وسألت وهي تعبٌّ شايها تارة وتتفرسني طورا:

- وماذا وجدت؟

أجبت مغالبا خجلي:

- أنشأت مولاتي في الحبِّ عيشا خلته هائلا عليّا، أخذته بقوة فحرثتُ المتنَ والدلالة، حتى إذا أشهدته على صدقي وحرِّ وجدي طويتهُ طيا على وقع رضاي، ثم نزلت في عشرتهن بكل كياني واهتياجي، نزلتُ بين الدقائق والمجملات، أنشدُ بينهن حقيقتي ومعناي؛ غير أني في متمِّ كلِّ ضمٍّ وجذب وفي ختم كلِّ وصال، ما وجدتُ سوى اندفاعاتي ورؤاي. قلت مولياً وجهي نحو البحر: الحياةُ دفعٌ وكدّ إلى أن تلين حواشيها ويطيبَ وقتُ الجني، أو إلى أن تدقَّ ساعةُ الترك والفكاكِ، وأنا في هذه الساعة ما زلت مقيما، والوعتاه!...

تململت المرأة في قعدتها كأنها تعلن الختم، ولما خرجت من صمتها قالت:

- لولا صدق معناك ما راقت عبارتك وشاقت... ما أرى إلا أنك اليوم، واللهُ أعلم، موعود لحدث ميمون تسعد به إذا أنتَ نهضت له وأحسنتَ تدبيره. والسلام عليك وعلى من تلقاه.

وقفت مسلمة وراحت من حيث أقبلت، تتبعها أمها حذو النعل بالنعل. وانصرفت بعدها خفيفَ الخطو، منشرحَ الصدر.

غادرت العيون بعد أن ودعت صحابي بها، وقبل رحيل العودة إلى مستقري عرجتُ، كما اعتدت، على بلدة مرزوگة حيث أُقبل في الفندق على خدمات صحية من سباحة ودلك وحمام بلدي، وأتبعها بدفن جسمي حتى المنكبين في الرمل، ويقال إن هذا الفعل يعود بالنفع على المفاصل والعظام؛ وأتوِّج ذلك كله بالصعود مع الصاعدين إلى أعلى الهضاب الرملية حيث تظهر الشمس وقتَ الغروب في دنوٍّ مبهرٍ من الرائين، فيتمُّ الالتذاذ بالشفق وتناقص الهالة الشمسية قسطا قسطا حتى سجوِّ الليل؛ عند ذاك أتدحرج إلى السفح متمرغا في الرمل العرمرم، ثم أروح للعشاء، وبعده لقضاء بعضِ ليلة تحت الفضاء المرصع بالكواكب والنجوم، ثم تحت الخيمة للتمتع بالاسترخاء والراحة.

خلال مراودة النوم وعند الاستيقاظ وعلى طول طريق الإياب لم يكن لي من تفكير إلا في جمانة وأقوالها النورانية الطهورة وما علمتُ من سيرتها، كما في كلماتها الأواخر التي تعنيني ويكون عليَّ فكُّ شفرتها إن قدرت.

*

مقام جمانة المنيف ومحيطها المبارك أنسياني إعادة تشغيل هاتفي، ولما فتحته طالعتني رسالة من عزيز ينعي لي زوجته علياء التي مضى على دفنها يومان. بادرت إلى تعزيته هاتفيا بأحر الكلمات وأصدقها، ثم قصدته في ضيعته، فألفيته أحزن من غراب، غائرَ العينين، متغضنَ الوجه، مقطبَ القسمات، شاردَ الذهن. أدركت أن هذه الوفاة أحدثت فيه سقما وندما، فاكتفى بالردّ على مواساتي، والتأثرُ طاغٍ عليه:

- المرض الخبيث فعلها... كانت له اليد الطولى والكلمة الفصل.

وحين نصحته بالصبر وقبول مشيئة القدر، فاه بما توقعته:

- قصرت في حقها كثيرا ولا أظن الشعور بالذنب سيفارقني.

فقلت له بلهجة حازمة عساني أشد عضده وأقوي شكيمته:

- السرطان لا يرحم المصابين إلا بمعجزة، وأنت والله لست مسؤولا عنه...

أعلم أن كلامي هذا ولو ضاعفته وكثّفته لن يفيد في شيء، فلا تخفيف يرجى إلا من مرور الوقت وتغير الظرف. لذا بتُّ ألازم الصديق في بعض النزه والرحلات القريبة، وحتى في ارتياد حانات لأسهر على توخيه الاعتدال في شرب الخمر. ولم تمرَّ بضعة أسابيع حتى آب إلى توازنه ورشده.

في حانة معروفة بموسقاها الهادئة، جالست عزيز حول طاولة منزوية، فعجبت من مبادرته إلى مساءلتي عن الشاب سعيد، أجبته:

- رأي الطبيب أنه شُفي، وأظن ذلك. عاد إلى دراسته وتوفق فيها بفضل متابرته واجتهاده.

- إذن هنيئا لك على ربح رهانك.

- سأربح أكثر حين أراه يحصل على عمل في قطاع التجارة داخل المغرب أو خارجه.

- لربما أساعده في هذا إن كان له سيقي متميز، فيكمل فرحك بنجاحك.

- ألف شكر يا عزيزي... ومن بعده، سأحاول حل مشكلة أخرى اسمها خولة.

سألني مبتسما:

- خولة! من تكون؟ اتركني أولا أشرب على نخبها.

ترددت منشغلا بالأكل، ثم مهتبلا تحسن مزاجه سردت عليه قصتها متكتما على جانبها السيء. أشرت إلى أنها بنت المرحومة زهرة الزهراوي، بعثت لي مؤخرا رسالة تستغيث بي وتطلب لقائي. التزم صمتا لعله يفيد أن الفتاة قد تكون من

صنف ما لا يوثق به، أو أن الأمر لا يهمه ولا رأي له فيه. وسرعان ما غيّر وجهة النقاش إذ استفسرني عن سفرتي الأخيرة إلى الصحراء، فمدحت له طبيعتها الأخاذة وخصوبة واحاتها ونقاوة مائها وهوائها وطيبوبة أهاليها، وكلها، كما أكدت، عناصر توقد فيَ جذوة التأمل والتفكير، وتدنيني من عالم الجواهر والألباب، ومن طعم المطلق وأُنسه. وختمت: في الصحراء أعرض نفسي على كل ما بالبهاء والحسن يلتقي فتخف وترتقي...

رأيت صاحبي مدهوشا فسألته: هل بلّغت؟ ثم أنشأت أقص عليه مفاخر السيدة جمانة وحبي العذري لها. استغمض لفظ العذري فقلت أي الأفلاطوني أي الروحي الخالص، فنفث شرابه من فمه وكاد يجأف. رأيت من الأصوب أن أظل مع جليسي على موجته وخطه الأليفين، سيما وأنه قال بمسؤوليتي في مضاعفة سكره وتقريبه من العربدة. لا أريد لصاحبي أن يعربد في كلامه ولا في مشيته. أوقفت سيل تعابيري وقلت له: ذاك من آثار إقامتي الأخيرة في صحراء التجليات والإشراقات، صحرائنا الحبيبة.

والعجيب عنده أنه يظل يقظا مهما علت درجة شربه، والدليل ما باح لي به قائلا: سكرتكَ أنتَ روحية وسكرتي أنا كحولية، فعلقت: ورغم ذلك، التواصل بيننا قائم والمحبة ثابتة. فأكد وزكى، وشكرني كثيرا أن فوّجت عليه وأفدته.

رأيت الوقت مناسبا للذهاب فرغّبته فيه، لكنه جذبني إلى المبسط مدعيا حاجته إلى عكاز الطريق، وهو في تعريف السكارى كأس الختم، إلا أن هذا الكأس تعدد عند طالبه الذي أنبأني بالمناسبة أن زوجته عائشة حامل، باركت له الحدث ثم استفتيته مجددا في حالة خولة، فقال بلسان متلعثم ثقيل ما يعني أن معارضته لي في أمر سعيد لا يريد تكرارها في أمر البنت، وأن الحياد عنده هو الأصوب والأسلم، ولو أنه نصحني باتخاذ الحيطة والحذر في نزوعي الخيري؛ ثم إنه تبادل كلاما مع بعض الندمان إلى أن أقنعته بوجوب الانصراف، فتوادعنا وراح كلٌّ إلى حال سبيله.

غداة تلك الليلة اللطيفة، أذنتُ لخولة بزيارتي، فما إن انتصف النهار حتى أقبلت مرتدية جلبابا وعلى رأسها حجاب خفيف. بادرتُ إلى تعزيتها في وفاة جدتها، فقالت شاكرة باكية إنها أمست مقطوعة من شجرة لكون ما بقي من الأهل هم بعداء. سألتها ونحن نتغدى:

- والآن يا خولة كيف حالك؟ وما طلبك؟

أجابت متحرجة:

- من دون إطالة سيدي... تعلقت بشاب مغربي في سني، بادلني الحب ووعدني بالزواج. ساعدني في الحصول على

جوازي وأقمنا في إشبيليا. وبعد شهرين صار فؤاد يكثر من التغيب عن البيت بدعوى قضاء أعماله، وتبين لي من بعد أنه منشغل بتجارة الجنس، بحيث أخذ يأمرني بمضاجعة بعض زبنائه، أكثرهم من عرب المشرق. وكنت كلما رفضت ضربني وحرمني من النفقة واحتياجاتي. ولما يئست منه لجأت إلى قنصليتنا حيث عرضت على مديرها قضيتي، فأشفق لحالي وأعانني على الرجوع إلى بلدي. وهأنا الآن معك أطلب منك سيدي إسكاني مدة أسبوع فقط حتى أعد تأشيرتي... أعرف سيدة صالحة تشجعني على اللحاق بها في الدوحة على أن أقيم عندها وتتكفل بإيجاد عمل لي، حسب وثائق أرسلتها إليّ... تعبت من حياة التشرد والفساد، تعبت من الحانات والملاهـي الليلية والرجال الوحوش، تعبت من أوهام العمل في السينما كممثلة عابرة ومن الوعود الكاذبة ومن نفسي المعذبة... والآن تبت والله تبت بفضل سلوكك الخيّر معي... ما أحتاجه هو بطاقة سفر لا أكثر، وطلبي سيدي أن تهديها لي جازاك الله.

قلت على الفور:

- اطمئني من هذي الناحية، سأعطيك أكثر من طلبك. لكن المرأة الصالحة ما وضعها المدني؟

- متزوجة من قطري ولها أربعة أطفال، وكانت تشفق على جدتي وتزورها.

ليس في كلام الفتاة ما يثير التشكك والريبة، بدا لي أن بذرة الانحراف فارقتها تماما، لذا توسطت لها للحصول على التأشيرة، وأمددتها بما يكفل ثمن السفر وحاجاتها الأخرى. وصبيحة اليوم السابع رافقتها إلى المطار موصيا إياها برعاية نفسها وسلوك طريق الصلاح، فيما هي تتلعثم في الكلام من شدة انفعالها وبكائها. وبعد أقلّ من شهر كاتبتي تطمئنني على حالها وشغلها في فندق رفيع.

بادرت إلى نقل خبر خولة السار إلى عزيز، فهلل وبارك، وقال مازحا: مقعدك محجوز يا يقظان في الجنة ، وإن شفعت لي سأكون معك فيها بحول الله، نسرح ونمرح ونسكر من خمرها الحلال... الجنة! من يدخلها إن لم نكن نحن وأمثالنا؟ الجنة الموعودة، أنت أعرف بها مني. حدثني عنها يا صديقي، حدثني... قاطعته قائلا: ليس الآن يا عزيز، ليس الآن.

ـ 13 ـ

في جلسة مع سعيد ببيتي، علمت منه أنه أنهى دراسته النظرية ويُجري الآن التداريب العملية التي تعده لولوج سوق الشغل. باركت له توفيقه وشجعته على الكد والمتابرة في مرحلته الراهنة. وفي متم الجلسة أنبأني أن أمه تتمنى التشرف بلقائي للتعبير لي عن شكرها وامتنانها على ما فعلت من أجله؛ ثم استعجل انصرافه تاركا لي رقم هاتفها.

يا للطلبِ العطرِ الجميل!

تلقيته ملء جوارحي فرحا، فكيف لا أهلل له وأستجيب، لكنْ من دون عجلة ولا هرولة، فأنا امرؤٌ حنكته التجارب والصفحات النسائية المطوية. فالأولى بي والأسلم لي أن أترك للرغبة في اللقيا أمد نموها وتوهجها، على أن لا يطول الأمد ويتمدد، فيوحي للطالبة بما قد يسيء إليّ. لذا سأطلبها ما إن أتفرغ من بعض الشواغل، منها تلبية دعوة عزيز لحضور عقيقة مولوده الجديد. في ضيعته جالست بعض الحضور يتقدمهم المحامي التيجاني وحرمه نوال النهري. بدا الرجل في غاية

الفرح بلقائي، واغتنم التحاق السيدة بفضاء النساء، فاختلى بي وقال بعد توطئات تودية:

- يشغلني، يا عزيزي يقظان، في هذي الأيام أمر أطلب رأيك فيه... مراحل حياتي حافلة بالأحداث، منها ما هو مهني، ومنها ما هو غرامي، ومنها ما جربته في عالم المال والأعمال. فكرت في تدوين كل ذلك حتى لا يضيع وأنساه. مذكرات أو ما شابه هي ما أريده؛ إلا أن قلمي لا يسعفني ولا العبارة. أكتب بقدر ما أشطب، أنتظر الجمل الجميلة المفيدة، أغازلها، أترجاها، فلا تحنّ ولا تلين ولا تطيع. ما العمل؟ انحصاري حال ثابت لا حل له! أغثني بفتواك يا صاحب القلم الجيد المبدع، أغثني.

فكرت قليلا ثم سألته متغابيا:

- كيف، يا أستاذ، يحصل لك هذا وأنت في مرافعاتك فحل لا يشق له غبار، تجول باللغة وتصول وتفعل بها ما تشاء؟

تفرسني وقال بلهجة استعطاف:

- الفروق بين الشفوي والكتابي كثيرة لا تخفى عنك يا سيد العارفين... فكرت في تسجيل كلامي ثم تكليف من يفرغه على الورق كما هو، ثم أعرضه على من يصححه ويعيد كتابته مقابل أجر مستحق.

أبديت علامة تأييد الرأي وتزكيته، فأردف:

- وهل أجد أحسن منك، يا صديقي، للقيام بهذه المهمة؟ ثمنك أقبله مسبقا وأؤديه متى شئت...

كظمت غيظي من هذا الرجل الذي يريد استئجاري لإنجاز عمل من يسمى "النيگرو"، فاكتفيت بالرد:

- يصلك جوابي بعد شهر أو شهرين. الأمر يتطلب مني الروية قبل القرار.

قال مبديا علامة انشراح:

- خذ وقتك اللازم، لكني آمل منك الموافقة...

قمنا معا وقصدنا عزيز ومدعويه، فيما انصرف ذهني إلى التفكير في أبلغ طريقة لأكيل للمحامي الشهير الصفعة صفعتين.

*

الآن، لأم سعيد أتفرغ.

هل عليها يصح تنبؤ جمانة الثاوي في ذاكرتي وصدري؟

"ما أرى إلا أنك اليوم، والله أعلم، موعود لشأن ميمون، تسعد به إذا أنت نهضت له وأحسنت تدبيره. والسلام عليك وعلى من تلقاه".

السلام، يا جمانة، على ذات الهمة التي استقبلتني في بيتها مرحبةً أيما ترحيب!

السلام، يا جمانة، على من في عتبتها الأولى كدت لما نظرتها أسقط على ظهري من شدة انبهاري!

السلام، يا جمانة، على حسنها الأخاذ وابتسامتها المنطبعة دوما على محياها الوضاء والشبيهة بابتسامة لاجوكندا المباركة!

السلام، يا جمانة، على قسماتها وأطرافها التي سبحان من صورها وأجاد التصوير!

يوم أغر هذا الاثنين عشية!

شعرت لأول وهلة أن كوثر، هذه المرأة الجالسة جنبي، هي شأني الميمون وفرصتي الأخيرة، هي حدثي العَليّ والتي إليها الرجعى والمنتهى، ودونها الهاوية الدانية والتلف الزاحف. قوَّت شعوري هذا وزكته هيأتها الرزينة وحركاتها الناعمة وكلماتها المستطابة. شكرتني بعينين دامعتين على ما أسمته فعلي الخيّر في حق ابنها الأوحد وإنقاذي له من هلاك داهم. مهوِّنا من دوري قلت إن ذلك من فضل الله الذي هداني إلى سعيد وشدَّ عضدي في مساعدته؛ ثم تحادثنا مطولا في تداريبه ومستقبله المهني.

وبعده انتقلنا إلى شرفة الشقة حول مائدة حافلة، وهنا أنبأتني أنها حصلت على تقاعدها النسبي من شركة تأمين حيث

كانت تعمل، وأنها فقدت زوجها وابنُهما في سن العاشرة، لها أهل من الأباعد لا تراهم إلا في الحفلات والجنائز، هوايتها القراءة والسينما والسباحة. وبدوري عرفتها بنفسي لماما تاركا التفاصيل إلى فرصة قادمة. ولما حلّ الليل رأيت من اللياقة توديعها، وتواعدنا على تجديد اللقاء.

عودا إلى حيي، ركنت سيارتي في مرأبها، وسرت أذرع الشوارع ليلا بخطى وئيدة، يغمرني إحساس خالص كثيف بالوجود واستمتاعٌ عارمٌ برحيق الحياة. وإنها لريح طيبة رهواء تلفح وجهي فأتنشقها مرارا ملء أنفي وصدري وآنس منها سكرة الحرية والمقدرة. ولا ريب عندي أن السيدة كوثر ثاوية في حالتي الشعورية هاتيك. فلقد أردتني محبا منذ أول لقاء، وأقول ما لم أقله إلا لزوجتي الراحلة نجاة: أنا أحب إذن أنا موجود. لا أمارة عليها تُظهر أنها من متعبي الحياة، لكن يجوز أنها، ككثير من البشر، منطوية على نصيبها من الجراح والملمات. واقتناعي المحصّل أني لو قُيِّض لنا القران سأهجر سراديب الوجع والضجر ودنيا الضجيج والهجيج، وذلك حتى أتخلص للمقصود والجوهر وللمهم الأهم من الشؤون؛ فكفى قلبي تقلبا، وكفاني خوفا من أن يعجل بي أجلي أو من أن أظل مقلاقا منتقما من كوني أحيا ومرددا في أوج تشاؤمي: الحياة مرضٌ مميت ينتقل جنسيا بالعدوى.

منذ أقلَّ من شهر أجريت فحوصا طبية على صحتي العضوية والدماغية، فكانت النتائج -والعهدة على الأطباء- إيجابية. لذا فتحتَ شارة الطمأنينة والأمان أدشن عقدي السادس، وبمعنوية معتبرة أفتح صفحة جديدة من حياتي. وبذلك كله وتفاصيله أنبأت عزيز، فهنأ وبارك، ولو أنه نصحني بالتريث قليلا قبل الإقدام على إعلان الزواج. كذا الأقدار، كما أعلمته، قادتني من الراحل عمر الماجد إلى طليقته المرحومة زهرة الزهراوي، ومن هاته أثناء إقامتها في مارستان إلى سعيد السعداني، ومن هذا الأخير إلى أمه كوثر.

بعد مضي شهر، فاجأني عزيز بأن سلمني ملفا يحوي حزمة أوراق مرقونة توطؤها رسالة من الأستاذ التيجاني إليَّ، أولها كلمات زخرفية في الإشادة بي وبقلمي، وفيها يترجاني صاحبها بالإقبال على تصحيح النص وإعادة كتابته متى لزم الأمر، وبرفقتها شيك كمقدم على خدمتي. إنتابني امتعاض شديد، فأعدت الشيك إلى عزيز طالبا منه رده إلى باعثه، ثم أطلعته على ما في الأمر:

- صاحبك لا مروءة له. يريد يستعملني كنيگرو مقابل فلوسه.

قال مخففا:

- لا بأس تنظر في بعض الأوراق ثم ترجعها إليه لكونها غير قالبة لإعادة الكتابة، فتنهي القضية.

وكذلك كان، إذ عملا بنصيحة الصديق قرأت عينات من الأوراق، فوجدتها ضاربة أطنانها في الركاكة والحشو، لغتها فوضى، لا سلامة فيها ولا سلاسة. أما المتن فلا يركبه إلا المتكلم السكران بأناه، معربدا على طول السطور والفقرات. في المحاماة لا فارس مغوار سواه، ولا غالب في القضايا الصعبة إلاه، يجول ويصول في المرافعات والندوات... بحثتُ في الشق المتعلق بحياته الخاصة، فلا سرد إلا لمغامراته الغرامية أيام شبابه؛ أما قصتي مع زوجته نوال النهري فقد تغاضى عنها تماما، إما تجنبا لاستثارتي أو لسبب آخر؛ وأما الصفحات حول طفولة الرجل وشبابه فهي ما يحسن القفز عليه نظرا لسخفه وتفاهته...

وفي الغد سلمت لعزيز الملف كي يعيده إلى صاحبه مرفقا بوصية التوجه إلى نيگرو محترف. وكان هذا الحادث سببا في التجافي بيني وبين التيجاني أفضى بنا إلى القطيعة المبرمة.

*

لما وليت وجهي صافيا شطر المقيمة في قرارة نفسي ووجداني، دعوت سعيد وأمه إلى عشاء في بيتي حيث تشاغلنا بالكلام في أمور شتى، ثم أنبأتهما عند متمه برغبتي في الزواج بها، فكاد الشاب يجن من الفرح فيما اعتصمت هي بالصمت،

مسبلة الجفنين، مشرقة المحيا. فخاطبني الابن:

- كذا سيدي تعبر أمي بسكوتها عن رضاها... هنيئا لها بك وهنيئا لك بها ويا سعدنا جميعا يا سعدنا!

ثم قام وقبلني وقبل أمه وهو في غاية الانفعال.

قلت له:

- اجلس حتى تسمع الأخرى، قررت أن أتبناك ابنا شرعيا قبل أن تسافر إلى عملك بمونريال، ما رأيك؟

- لن أنام الليلة من شدة فرحي. والله حسبتك أبي منذ أخذت ترعاني. كيف أشكرك؟

- بالنجاح في مسارك الجديد.

استقام الشاب واقفا وقبلنا ثم استسمحنا في قضاء الليلة عند أحد أصدقائه للاحتفال بعيد ميلاده.

لما خلوت بكوثر في الصالون حول مائدة شاي وحلوى شكرتني على الحلي التي أهديتها لها، ثم انطلق لسانها وانذلق، قالت:

- طلبك مولاي يشرفني ويغمرني بالسرور والسعادة. كيف لا أقبل وأنت من أكرم الكرماء، أنت والله هبة لي ولابني نزلت علينا من السماء! أقول لك نعم وألف نعم، رجائي أن

أستحق ما تدعوني إليه وأكون عند حسن ظنك بي. دبّر الزواج كما تشاء وأنا أسير في ظلك...

ثم إنها أخذت تبكي بكاءً حارا. استوضحتها عن سببه، قالت وعيناها محمرتان:

- أبكي حين أحزن، لكن دموعي اليوم هي دموع الفرح... فرحة أنا بك سيدي وفرحة بابننا، جازاك الله خيرا وحفظك ونعّمك... وإني أبكي الآن أيضًا على ما فاتني في جنبك.

لو لم أكن عصي الدمع لبكيتُ بدوري معبرا عن شدة انفعالي بكلام جليستي المنوّرة. لكني في المقابل ضممتها إليَّ وختمت على خديها النَّديين وشفتيها الشهيتين أولى قبلاتي، وهمست في أذنها:

- أنت منذ الآن بعينيَّ وفي حنايا صدري. لن تعرفي في عشرتنا إلا حياة يغمرها السعد والسرور.

- وأنا، وحق المعبود، لن يكون لحياتي معنى إلا في رعايتك وجعلك بين الرجال أهنأ زوج وأسعدهم...

شعرت في هذه الجلسة الحميمية وفي أخرى تلتها أني أنعم بلطف حليلتي وحنانها، وأن كلماتها تنزل عليَّ خيرا وسلاما، فتكْسرُ رويدا رويدا كربي وصقيع عقمي. فهل يجود

عليّ حبها بكثافة وجودية تتحول في وقت ميسور إلى كثافة سردية؟ لا بد لي في هذا من استفتاء من غدوت أهتاج اشتياقا إليها: جمانة، ربّةُ الحدس الحاد والرؤيا الثاقبة.

صباح اليوم التالي وصلني إيميل من سعيد يخبرني شاكرا أنه تلقى دعوتي إلى حضور حفل زواجي من أمه وكذلك بطاقة السفر. وأنبأني أنه سيأتي مرفوقا بصديقته المغربية التي تعرف إليها في مونريال، وتعمل مثله في شركة تجارية. سُررت وسُرت كوثر بهذا الخبر ورأينا فيه بشارة يُمن تأكدت لنا ما إن استقبلنا الشابين ولحظنا ما بينهما من حب ووئام. أما حفل الزفاف فقد مرَّ في بيتي سلسا هنيّا، حضره أهل العروس وبعض معارفي يتقدمهم عزيز وحرمه والطبيب أنس الساحلي. وفي ختامه اختلى بي صديقي وأسرّ إلي بعزمه الزواج قريبا بامرأة حضرية تحل محل زوجته المتوفاة. وكيما يبدد عجبي عاجلني بكون عائشة البدوية موافقة على ذلك برسم مكتوب. وادعى أنه لا بد له من العقد على الاثنتين حتى يهنأ ويستقيم، فلم أملك سوى أن أبارك له فعله.

كان لسعيد كلام طيب مع طبيبه ومعي أيضًا وأمه حيث تناقشنا في احتياجاته وتطور وضعه في المستقبل المنظور. وبعد رحيله صحبة رفيقته، استأذنتُ كوثر في الذهاب إلى مدينة العيون لإلقاء محاضرة بدعوة من جمعية ثقافية عتيدة. اقترحت

عليها مصاحبتي فاعتذرت محتجة بضرورة الاهتمام بشؤون البيت مع خدوج ومحمود.

*

لما حللت بالعيون استقبلني في المطار أبو علي ماء العينين رئيس الجمعية وبعض أعضائها، فرحبوا بي أيما ترحيب، ثم رافقوني إلى الفندق حيث أخذت قسطا من الراحة ورتبت أفكاري وجذاذاتي. وفي المساء ألقيت محاضرتي التي وضعت لها عنوانين هما: "كيلا يتحول مفهوم الحوار الثقافي إلى أفيون جديد" و"الحوار الثقافي بين المثال وعوائق الإنجاز". افتتحت العرض بقولة سقراط: "إن الحياة لا تستحق الاعتبار إذا لم تقوَّم بأنواع الحوار"، وأتبعتها بمأثورات في الثقافة العربية الإسلامية الدالة على أن لممارسة الحوار فيها حضورا قويا من خلال المجادلة والمناظرة والمطارحة والمثاقفة، وبينت ذلك وحللت. هذا من جهة المثال، أما عوائق الإنجاز فحصرتها في ثلاثة: اللغة السائبة وسوء الاستعراف والتسلط الهيمني أو قانون الأقوى... وتلا ذلك نقاش مفيد أثرى عرضي.

وفي أول الليل، قابلت الصديق أبا علي في منزله، فجدد لي شكره على تلبية دعوته، ونوه بمحاضرتي وجراءتي؛ ثم لحق بنا ثلة من مقربيه، فتعشينا معا، وبعدئذ تجاذبنا أطراف

الحديث في شؤون ومتفرقات شتى. وكان للمضيف قصب السبق إلى الكلام، قال:

- عطفا على ما تكرم به حبيبنا يقظان عبد الحي، ماذا يمكننا، عربا ومسلمين، أن نتحاور فيه اليوم مع المتجبرين الغربيين، إذ يضعوننا بين المطرقة والسندان أو بين خيارات أحلاها مرّ، ثم يقولون لنا: الآن لنتحاور.

عقبت:

- أحسنت التصوير يا أخي! إنهم لا يريدون أن نكون مثلهم في التقدم والقوة، بل يريدوننا طيعين مدجنين، حاملين الأعلام البيضاء مستسلمين، والأنكى والأمر أنهم يجدون لوبيات محلية يخدمون أعتابهم ومراميهم!

وقال جليس:

- تراهم يقحمون عمدا وعن سبق إصرار الإسلام في الإرهاب، مع أن التعريف التوافقي للإرهاب هو فكر وسلوك من لا دين ولا قانون له... لو كانت العدالة في الدنيا سارية لقدم جورج ولكر بوش وشريكه طوني بلير لمحكمة الجزاء الدولية بتهمة تدمير العراق بكل وسائل الإجرام والإرهاب.

وقال آخر: اسمحوا لي، يا سادة، أن أخلص إلى هذي

الشذرة: الضغط والتخلف يولدان الانفجار والتطرف. وسأنظر في تحويلها إلى گاف إن شاء الله.

وقال آخر:

- لقد بتّ منذ مدة أضع تحت المجهر ما أجده من عيوب ومغربات تخص وطننا. فلا شك تعلمون أن التكاثر السكاني أمسى سمة مهولة يوازيه تكاثر مشاكلنا الحادة العصية؛ وتعلمون أن هناك مغاربة عديدين، أميون في اللغة العربية وثقافتها، لا تحرجهم جهالتهم، بل بها لا يشعرون ولا يأبهون؛ كما تعلمون أن نظامنا التعليمي المتصدع يخرّج شبابا عربيتهم مهشمة وفرنسيتهم فرية. لكن هل تعلمون أن نشيدنا الوطني الذي وضع كلماته الشاعر علي الصقلي هو من تلحين فرنسي اسمه ليون مورچان، كان يعمل في الحرس الملكي أيام الراحل الحسن الثاني؟ وهل تعلمون أن جائزة أدبية فرنكوفونية تحمل اسم فندق المامونية بمراكش تُنظم سنويا وتعطى حصريا للكتاب المغاربة بالفرنسية. وقد أثبتت الدورات أن معظم الروايات الفائزة تتمحور حول الجنس والحشيش والبغاء والتطرف الديني. إنما الأغرب الممض في هذه الجائزة هو أنها ممولة من طرف المكتب الوطني للسكك الحديدية، واعبثاه! ولما طلب اتحاد كتاب المغرب من مدير هذا المكتب جائزة تخص الأدب بالعربية امتنع وتعجرف.

ارتأيت أن أنقل إلى الجمع خبرا غاية في العجب والشذوذ، قلت:

- ما كشف عنه الشيخ العثمان عن جائزة المامونية ذكرني بجائزة أخرى أنشأها السلك الدبلوماسي العربي المعتمد في باريس منذ مدة، تُمنح سنويا لأحد الروائيين العرب الفرنكوفون على اعتبار أنهم يخدمون قضايا العرب وثقافتهم، والحال أن هؤلاء يوجدون في كفالة الأوساط الفرنسية نشرياً وإعلاميا وفي رعاية سياسة فرنسا الفرنكوفونية. وإثباتا لسوء البصيرة وفساد التصور لدى أصحاب المبادرة، فإن ما توقعه مثقفون وملاحظون حصل ليكشف عن ذلك بالحجة المادية. ففي دورة 2012 توافق السلك المذكور على منح الجائزة إلى روائي جزائري هو بوعلام صنصال، وكان هذا على وشك تسلمها لولا أن تدارك السفراء الأمر بحجبها عنه، والفضل في اتخاذ قراراهم يعود إلى اعتراض شخصيات عربية وازنة مقيمة بباريس، وذلك باعتبار أن الروائي ذاك تصدر عنه مواقف وكتابات عنصرية محقرة في حق العرب وثقافتهم، كما أنه معروف بتأييده لإسرائيل وزياراته لها. وقد عوضته عن الجائزة مضاعفة مجموعة لاگردير الفرنسية... أليس هذا ضربا بالغاً من ضروب العبث وسوء المعرفة والتقدير؟ وقد عرف وضع الجائزة بعد ذاك انسحاب ذلك السلك منها لتسهر على

استمرارها تلك المجموعة ومعهد العالم العربي الذي بات يسهم في رعايتها وتمويلها... أما صنصال فقد صعَّد من توجهه العدائي السافر للعرب والإسلام في روايته الأخيرة "2084" التي احتفت بها الأوساط الإعلامية أيّما احتفاء...

ثم عرجنا على قضيتنا الوطنية، الصحراء، فسجلنا ما تعرفه من تطورات إيجابية على الصعيد الدبلوماسي، الإفريقي والدولي، كما وقع إجماعنا على أن المغرب حرر هذه الأرض بفضل المسيرة الخضراء، ثم قوى قوامها ومكاسبها بمسيرة أخرى هي مسيرة التنمية العمرانية والبشرية. وهكذا خلق لها أسباب الحصانة والمناعة. وانتهت الجلسة بمقارعة في إبداع الگاف –وهو وحدة شعرية مقفاة تقل فيها الكلمات ويشع المعنى- خاض فيها أبو علي والشيخ العثمان، وكانت الغلبة للأول بشهادة الحضور وتنقيطهم، فأظهرت أن له في هذا الصنف باعا واتكاءات. وبعدها توادعنا وانفض الجمع، إلا من المضيف الذي استبقاني لحاجة في نفسه يريد إطلاعي عليها، قال:

- لا شك ترغب في زيارة جمانة. لن ألبي لك رغبتك هذي المرة. يؤسفني أن أبلغك أن المرأة عمت أو كما نعبر تبصرت. وهي منذ مدة تعيش في عزلة موصدة، لا تربطني بها عند الحاجة الماسة إلا أمها.

نزل علي الخبر كالفاجعة، ألقمني هولها الحجر، فلم أعلق ولم أنبس ببنت شفة، فودعت صديقي بعد أن ألح على مصاحبتي إلى المطار صباح الغد.

*

لم يمض أسبوعان حتى هتف لي أبو علي يبلغني أن السيدة جمانة تريد مقابلتي. فما كان مني إلا أن لبيت بعد أن طمأنت زوجتي على أن غيبتي ستكون قصيرة.

حين مثلت وقت العصر أمام طالبتي في بيتها بمحضر أمها الرقيبة، كانت تلبس الوشي وعلى عينيها نظارة سوداء. قالت بعد أن رحبت بي وشكرتني على تلبية دعوتها:

- أنا، يا سيدي عبد الحي، كما تراني، حُرمت من نعمة النظر، ولا أملك إلا أن أصبر على إعاقة أمست متوارثة بين أهلي، تصيب البعض وتعفي البعض... صورتك مركوزة في ذاكرتي. وإني لأكلمك الآن وكأني أراك... صرت أدرك ما حولي بحافظتي وبعين القلب. لي في كل يوم وجبة واحدة لا أتعداها: شيء من الرغائف واللبن والتمر والجبن والفواكه، فقاسمني ما تراه على مائدتي هنيئا مريئا.

نلت من الوجبة ما قدرت عليه ثم قلت:

- هذا مولاتي طعام أهل الاعتدال والحمية، فوائده الصحية جمة لا يعتبرها إلا العارفون.

مسحت فمها وقالت:

- صدقتَ يا أخي! كنت دوما على طريقة سادة الصفاء والخرقة، وأنا مطالبة اليوم بجد السعي إليهم للتهوين علي مما أصابني.

رفعتُ يدي عن الأكل وعقبت:

- لكِ في ذلك العزم كله وقوام المقدرة...

مستحيية قالت:

- اسمح لي بغفوة قصيرة، نذهب بعدها إلى ربوتي الأليفة لنتم كلامنا وننتظر مغيب الشمس.

ساد صمت غريب، تخلله شخير العجوز المتمددة على قطيفتها، فيما أنا أغمض عينيَّ تارة وأصوبهما نحو جمانة المتكومة تارة أخرى. وحين أفاقت صلت ركعات، ثم ثبتت نظارتها السوداء وشدت على مقبض عصا وتأبطت ذراعي معلنة: حان وقت الخروج.

قادتني رفيقتي إلى قمة ربوة رملية حيث جلسنا متجانبين، بينما اقتعدت الأم ركنا في السفح، ترنو إلينا ولا تسهو عنا. كان المكان يزهو بلطائفه الصحراوية وبنسيم عليل يلفح وجه كل يقظٍ نبيه، فينعش حواسه ويباركها.

قالت السيدة وكأنها عادت من تأملاتها:

- هذي الربوة أعرفها منذ صباي وتعرفني، ما من شبر إلا ولامسته وتمسحت به. هنا كنت آتي لأبث للرمل والهواء لواعج أحزاني أو أقاسمهما وثباتي وأفراحي.

ثم إنها فاجأتني سائلة:

- هل خارج الوهم وجدت؟

فسارعت إلى الإجابة:

- نعم مولاتي، وجدت أخيرا من عوضتني عن زوجتي الأولى المتوفاة، اسمها كوثر وهي حقا اسم على مسمى، معين العذوبة والصفاء. اقترنت بها وتبنيت ابنها. وأنا معها اليوم محبٌّ مكرم. هي دوائي وبلسم جراحي، معها قلقي قلّ بل باد، وأنا بها اليوم حرٌّ نفيس. تهديني متى تحاورنا جملا جميلة ومن اللطائف ما يدهشني ويعجبني. سألتها ذات مرة لمَ تبكين، فقالت: على ما فاتني في جنبك. ويوم أصيبت بزكام حاد كدت أجن، فلم أهدأ إلا بعد أن برأت وتعافت.

اهتبلت سنوح الفرصة وسألتها:

- وأنتِ، سيدتي، هل أحببتِ؟

ترددت لحظة ثم أجابت:

- الذي أحببته وتزوجته غاب عني منذ خمس سنين. غاب كأن الأرض ابتلعته أو السماء لحسته. كان من سادة قومه وذوي العقول والسؤدد. يصيب إذا أفتى ويبرع في فض المنازعات والخلافات. فحْل في كل شأن، والطيب منه يتضوع متى تكلم أو قام أو مرّ. وما من حسناء في العشائر والمدائن إلا وتغزلت فيه سرا. وأنا كم من شعر نظمته في تقريظه أيام حضوره إلى جنبي؛ وكم من گافات تبرعت بها عليه. وفي الحالتين معا كنت أبرز صادقةً مناقبه وشمائله، وأبادله الحب حبين بل أكثر. ولما اختفى ويئست من عودته تعاطيت كتابة الحكم، علها تعينني على اكتساب الاتزان والهوادة؛ وذلك بدءاً من حكمة لم أجد لها مرجعا فنسبتها إليّ، وهي: ليس الحكيم من نصحَ بالمكوث أو قال بالسفر، بل الحكيم من تكلم من مساحة جرحهِ وبوزن غصته. أحكم الحكماء من نام قرب فوهة بركان وقال قبل أن يقذف حممه: توقعتك أيها الرعب!

سكتت لحظة ثم تابعت:

ظل طيف حبيبي الغائب يزورني بين كتابة حكمة وانتظار أخرى، ويعاودني طرفا طرفا وجسما وروحا. وحين يبلغ في كياني منتهى جودته وأريجه، أخزن حِكمي وأهيم على وجهي في صحراء محيطي، باحثة عن رسومه وذكراه، شاهرةً نقضي

في وجه كلٍّ من ينكرُ الحب ويلهجُ بالبعضاء... وعليه، هنيئا لك الحب الذي أنتَ نائله، وجعلك الله من ساداته السعداء. واعلم أن الحب على وجه المثال والتخصيص تلازمٌ بالروح وحسنُ التلاحم، قال المحبان: تلازمنا وتلاحمنا حتى توحّدنا. أما إذا اشتكى المحبان من الرتابةِ والأضجار، فتيقن أن حبهما لهوٌ وهراء.

صمتنا لحظات، أنا لاستيعاب أقوالها واستحلائها، وهي لإعداد الوصلة والتتمة، ثم أردفت:

- أنا سليلة الدوحة الصحراوية. علمتني فضاءاتها الوسيعة حسن الإنصات وقوّت فيَّ حاسة الحدس. وهكذا، منذ لقائنا الأول، شممت فيك رائحة انتمائك إلى أهل القلم والكتابة... هل أصبت؟

- أصبتِ حقا مولاتي، لكن ذلك كان في زمن ولّى، أما اليوم فالغالب عليّ هو احتباس إبداعي لم أجد له حلا...

- أظن، والله أعلم، أنه لمغالبة حالتك يلزم أن ترصد نقط ارتكاز واستدلال، أن تحوش نصيبك من بهاء الحياة. إنها مهمة لا يقدر عليها الوسطاء والجماعون بل المكتشفون والمبدعون. فاختر فريقك، وكن مع من يقويك قوامُهم... ما أسوأ سير الدنيا! يقول المتشائم المريرُ المكلوم. وما يدركه كعناصر

مكونة للوجود: الدمامات والأوجاع والكوارث وسواها، ترى آخر، معززا بموهبته، يسخّرها كمادة خام لتحويلها إلى لوحة خلابة أو كتابٍ عميق. إني، بالرغم من بلاياي وإعاقتي، مع هذا الآخر انتفض وأمشي، فكن مثلي إن أردت... أحس بالشفق ودنو الشمس من مغيبها. كلمتي الختم: الحب منجاتك وحبل خلاصك. فكن محبا ومحبوبا تنفرج غمتك وتنحل عقدة عجزك. والسلام عليك وعلى من تنتظرك.

كفت ناصحتي عن الكلام ما إن غابت الشمس، فقمنا معا وتبادلنا العناق والقبلات على الخدود، ودعت لي: "الله يحفظك من حوادث السير، وحيثما كنت سق بالهوادة أرجوك"، ثم لحقت بأمها وسارتا متآزرتين في اتجاه مثواهما، أما أنا فقصدت صديقي أبا علي لأبيت عنده وأعد عودتي إلى مستقري. في الطائرة وفي الطريق المفضي إلى بيتي لم يكن لي من فكرٍ إلا في جمانة الرائعة كما في أقوالها النيرة التي أخذتُ أرددها همسا وأطبعها بين حنايا صدري وفي ذاكرتي.

ـ 14 ـ

"السلام عليك وعلى من تنتظرك". تلك كانت الكلمة الأخيرة من فم مولاتي جمانة، وعلى ضوئها تبادلت مع كوثر عبارات الأمان والشوق وطارحتها الهوى ما إن عدت إليها. أخبرتها بما قل عن محاضرتي فهنأت وباركت، وتحادثنا في أمور منزلية وأخرى تتعلق بابننا سعيد وعمله وعلاقته الغرامية ومشروع زواجه؛ ثم تغدينا معا، ومن بعده استأذنتها في الذهاب إلى مكتبي الذي، أضحى، كما أوصيت، مقسما إلى فضاءين تفرقهما ستائر سميكة، واحد أشتغل فيه نهارا بالقراءة والآخر ليلا بالكتابة. وهذه المداولة ينصح بها سينيكا القرطبي المولد، الروماني الأصل، وهو الذي طالعتُ رسائله إلى تلميذه لوسيليوس كما لو أنها مرسلة إليّ. وما يجذبني إلى هذا الحكيم والسياسي هو حياته المرتجة في عهد الإمبراطور نيرون الذي اتخذه مستشارا وأمر باعتقاله بتهمة التآمر عليه، فخيره المجنون بين أن يقتل شر قتلة أو ينتحر، فاعتمد سينيكا الخيار الثاني في 65 ميلادية... وقد وقفتُ على صواب نصيحته هاتيك وفوائدها الجمة، كما تعلمت من رواقيته فضيلتي الصمود والمصابرة.

بفضل ما تشملني به حبيبتي من أنس ومودة أخذت أشعر بهدأة أعصابي وتوافقها وبالمصالحة مع ذاتي وبقدرة معتبرة على اجتثاث أخطبوط العصاب من نفسي؛ كما شعرت أن هذه النفس أمست أمارة بنزع الاحتباس الإبداعي عني وقطع دابره وآثاره، وكنت السميع المستجيب. صدق وعد جمانة وصحت رؤياها. فها إن كل شيء، خطوةً خطوة، يأتمر لي: الكلمة والجملة والفقرة والصفحة وما يصحبها جمعاء من بلاغة وبيان.

وها إني أخط:

"*الكتابة*، حسب كافكا، *ضرب من الصلاة*"، ولا ريب أنه قصد بهذا التشبيه البعد الروحي الذي على الكاتب-المصلي أن يجده ويوجده في علاقته بالمطلق، بمعنى أن يتحدث في الحب مثلا كما لو أنه أول المتحدثين ، أن يكتب في ما يشاء ويريد، لكن من دون أن يفقد شعوره، ولو ظل مبهما، أن ثمة بين ثنايا كتابته تحديا للموت وذرةً من السرمد.

وأخط:

الكاتب في كل مجالات القول والفعل، هو من إذا واجهته المواد السريعة الطبخ والتلاشي، نأى بنفسه هاربا منها هروبه من الطواعين. ترياقُه الأنجع والأبهى فكرةٌ متحننةٌ إلى بواطن المدى، وتعشّقُ أقوات الروح والإبداعات المتحاورة

عبر الفضاءات والأزمنة، وطعمٌ قبليٌّ للمطلق ملءَ الجوارح والحواس: كل هذا وسواه هو ما قد يحفزُه على فعل الإجادة باطراد، وقياسِ قوة منتوجه بحيوية الرؤيا وجذرية الأسلوب.

وأخط:

المتعة، متعة الكتابة، تكمن أساسا في علاقتي مع نفسي ومع كيانات الكلمات والأشياء، إنها الثمرة المطلوبة والثمرة المجتناة. إنها كنبض حي من طبيعتها أن تتجلى عبر لمعٍ وبوارق، ثم تخبو أو تزول. لذا أراني أقضي أقسى أوقاتي عند تواري المتعة، أي بعد اقتنائها واستهلاكها، كما أني أقضي في ترقب عودتها وتجددها لحظات يُتْمٍ وقلق. وقد أتلهى في حالتي هاته بتسويد بياض الانتظار بما يعنُّ لي من الكتابات التعويضية، التي قد تجلب لي بعض المتع الصغيرة، لكن ما إن تتهاوى تلهيتي هته حتى أعود إلى طلب النشوة الحقيقية والعليا، التي يوقنني زخمها وتوهجها أنها مُعدية، أي قادرة على أن تمس بقبساتها بعض الآخرين...

وظللت على هذا المنوال أخط ما يخطر لي من تأملات وأفكار، كما لو أني أضع للكتابة دستورا أو خارطة طريق. عجبت لذهني وقلمي كم طاوعاني في ظل صمتٍ لا كما عهدته من قبل: ضاج وكالرصاص ثقيل، بل في ظل صمتٍ

ناعمٍ، حريريٍّ اللمس والمجرى، يحث على تقليب أوجهِ الوجود ومسالك المعنى، بعيدا عن الطرق المطروقة والأمكنة العامة والبؤر الفاسدة. لحظات استراحتي الضرورية صرت أمضيها في تناول فاكهة ورشف شايي أو في قطف قُبلٍ من زوجتي قبل مشاركتها أويقات الاقتيات أو المشي في الشاطئ والغابة من دون أن ننسى الاطلاع على ما تفعله يدا محمود المجددتان بأغراس الحديقة وأزهارها، وعلى ما ينفقه من جهد في رعاية مسبح الڤيلا ورحابها.

وذات ليل عند هزيعه الأوسط، هرعت إلى مكتبي مقودا برغبة جامحة في خط ما يتراءى لي من جمل وصور شتى، تدافعت وتأثلت، دفيقةً، يانعةً، بليغة. فشرعت آوي فيضها ضمن صفحات تلو أخرى، وأقيس انثيال شآبيبها عليّ بلهثي وخفقات قلبي. لقلمي في ذلك السيادة كلها، ولبياض الورق انسياب هائل وطاعة مثلى... هوذا إذن الإكسير الذي حلمت به طويلا أو قل الجذوة المتقدة التي تفجر الكتابة وتحولها إلى سيل ناعم متناغم وممارسة مرصعة بالحدوس والإشراقات الأخاذة.

وعند انبلاج الصباح ورجوع حالتي إلى مجراها الاعتيادي، أعدت قراءة ما سطرت، فوجدته زاخرا بالتجليات

الوجودية، معناها ومبناها متناسجان متناسلان. فهل تؤشر جميعها إلى أوبة الاقتدار الابداعي إليّ؟ وهل لِما تبقى من عمري أم لفترة محدودة يعقبها العقم والإنحباس؟ ولا أخفي أن صوتا مناوئا صاح بي: حتامَ تجول وتصول في رغدك وهناءته؟ ألا تفكر في المآل وتقاليب الأحوال؟ رددت الصوت خاسئا وقبرت صداه، فقمت واغتسلت، ثم قصدت كوثر التي كانت بوجهها الصبوح وابتسامتها المضيئة تنتظرني للفطور معا في الشرفة المطلة على البحر. اعترفت لها أني من غرفتها سمعتها في جوف الليل تبكي، فجاوبتني القانتة المصلية أنها إذ تقرأ آيات قرآنية تفيض عيناها بالدمع من شدة التأثر والخشوع؛ ثم أوجزت لها ما حدث لي ليلة الأمس، فأبدت إهتمامها وشجعتني على مواصلة السهر ليلا في غرفتي المخصوصة والتعويض أثناء النهار عما فاتني من نوم. فكيف لا أسعد بوجودي في ظل امرأتين مباركتين: واحدة توقعت انكشاف غمتي وأخرى ترعى نهضتي وصفحة حياتي الجديدة.

مدةَ أحد عشر يوما أمضيت لياليها على شاكلة تلكم الليلة الغراء ونهاراتِها بين قضاء حق قرينتي عليّ ومطالعة الإنجازات الجمالية في أمهات الكتب الأدبية والفكرية، أقرأ مجِدّا متابرا لأن أخوف ما أخافه أن يتخطفني الموت على حين غرة وأنا منطوٍ على جهالاتي وثغراتي... وعلى ذكر الموت، فلكأني

أبرمت معه عقدا يتيح لي تناسيه وعدم الاهتمام به مقابل أن أتقبله راضيا متى أطل وأقبل. ولا مطلب عندي لديه إلا أن يقيني أوجاعه وملازمة الفراش لأمد طويل؛ فصدق من قال: "الموت ليس شيئا بالغَ الجدية، خلافا للوجع". وفي تغييبه لي ما قدمتُ لحياتي وما زلت أقدم، لي اللحظات الغرُّ أقطف سعدها وكثافتها، فأُطيح بمصادر الألم والملالة في وجودي، وأجفف عقابيلها ورواسبها. ملكاتي اليوم، كما أحسها، جلية يقظة ونظري ثاقبٌ قويم.

أما ما كتبته خلال هاتيك الليالي، ويحتاج إلى الكثير من التنقيح والمزيد، فقد دارت إحاطته السردية حول نوى صلبة أو ماهدة، بعضها اقتبسته مما كان صديقي الراحل عمر الماجد يرويه لي، وبعضها الآخر ربما كان من بنات أفكاري، وهي إجمالا كالتالي:

إنها قصة تحكي حياة زوجين يخون أحدهما الآخر ويسكت عنه حتى لا ينهدم صرح مصالحهما المادية المشتركة. لكن حدث يوما أن المرأة فاجأت بعلها ذال المال والنياشين مع رجل عاريين على فراش الزوجية، فالتقطت له صورا خاطفة وفرت، ثم صارت تساومه بها، إما أن يخضع ويطيع وإما أن تفضح وتنشر، فلم يتحمل الزوج الصدمة فتوفي بسكتة قلبية. اتخذت المرأة عشيقا سرعان ما أخذ يساومها بفيلم حول

علاقتهما الحميمية ويبتزها مقابل صمته، فلم تسلم منه إلا بعد أن مات في حادثة سير مريبة أدت تحريات الشرطة الجنائية إلى جواز وقوف الأرملة وراء ذلك؛ غير أنها أفلتت من العقاب بسبب رشاوى وتواطؤات يسرتها ما ورثته وملكته... وفي النص سرد لرجات متنوعة في حياتها استطاعت بمشقة تخطيها. ولما تقدم بها السن أضحت تعترف لطبيب نفساني أنها مصابة بخصاص فادح في تلقي الأنس والحنان، مما يضطرها إلى استئجار خدمات شبان لتعويضها عنه، مؤدية لهم ثمنا يقاس بالوقت المستهلك. واستخلص الطبيب لحسابه ككاتب أن هذا وجه آخر من وجوه البؤس البشري؛ كما أنه تذكر بالقياس، مع وجود الفارق، حالة عجوز أخرى عانت من البؤس نفسه، إلا أنها اختارت مقاومة ابتزازات مرافقيها الشباب ومساواتهم وتهديداتهم لها بالقتل إن هي لم ترضخ وتستجب، وذلك بأن شرعت تتخلص منهم بفضل خدمات ملاكم شديد البأس، فائض العضلات، سلطته عليهم وقنع بما تدفعه له، وصار يؤنسها بالمجان... وتتخلل النص مشاهد وأحداث وحوارات وتقلبات متداخلة كثيرة.

وفي شق آخر: مستلهما روائيي تيار الوعي، تصورت كاتبا نجا من محاولة اغتيال بأعجوبة، وأخذ في مونولوگا يفترض أنه مات متأثرا بجراحه بعد أن غلغل المعتدي خنجره

في بطنه وتمادى في تقليبه؛ كما تخيل مراسيم جنازته ودفنه وما تداوله خلالها وبعيدها أناس من كلام رثائي يغلب عليه في نظره الغلو والنفاق، فأخذ هو يصحح أقوالهم ويساجلهم في ما يذهبون إليه، يقارعهم الحجة بالحجة، كاشفا عن بؤر وحقائق من سيرته الذاتية يجهلونها ولا يرتاح إليها. وظل ذلك جاريا إلى حين قبْل أن يرموه في قبر نسيانٍ صارمٍ قاهرٍ كليّ.

وهذا سجل مغاير فتحته خلال الليلة الحادية عشرة، وكنت منذ سنوات خلت أفكر فيه وأهندس ذهنيا مشاهده وتدرجاته، فوضعت لمساته الأولى وحررت في دفعة واحدة فصله الأول، ومداره حدثُ تحريم أساقفة باريس وأوكسفورد وكانتربري قراءة مصنفات ابن رشد المترجمة إلى اللاتينية والعبرية، حتى إنهم أصدروا حكما بالإعدام حرقا في حق أحد مترجميه المتأخرين، هو جيرار براي دي لانگدوق... لكني ما زلت في مسيس الحاجة إلى تقصي المزيد من أخبار هذا المترجم المحروق ومقاربة سيرته الذاتية واللغوية كيما أستعين بها لإظهار ما مارسته مسيحية ذالك العهد من قساوة قصوى وهمجية، كما في حروبها الصليبية ومحاكمها التفتيشية ضد مسلمي الأندلس.

تلك مجرد خطاطات وعناصر، إما تتقاطع وتتناسل لتوليد نص ينجب آخرَ فآخر على شاكلة الدمى الروسية، وإما تستقل

بذاتها في نص يشارك سواه صفاتِ التماسك والتكامل والجودة الروائية الضرورية.

في قسم المكتب المشمول بضوء الشمس الغامر، شرعت بين السرير والكانبي أنظم أوراقي التي أدهشتني وفرتها، وأبث فيها ما يلزم من تجانس واتساق، ثم وضعتها جانبا مرجئا مراجعتها بالتصحيح والتشذيب إلى وقت آخر. وما بدا لي فعله عوضها هو الغوص في قراءة كتابات إنتقيتها انتقاءً بمعياري القيمة الأدبية والفكرية العليا والقدرة على تحرير القارئ من أغشية السبات والغفلة وأقفال الجهل الآثم. وما أحوجني اليوم إلى جاذبيتها وبهائها، سيما وأني أعيش في مجتمع طغت عليه مخالب اللامعرفة وفسدت فيه أركان اللغة والتواصل والذائقة. وحين أكملت حصتي من القراءة ابتهجت، فدعوت سيدة المقام ذات الهمة إلى مؤانستي ومقاسمتي متعة الوجود الخالصة، فقالت: وهل سيدي أفعل غير هذا!، ثم صحت من النافذة: موالك يا محمود، فاستجاب محاكيا صباح فخري وبّا جذوب. وبعده خرجنا أنا وحليلتي للتنزه في الشاطئ واستنشاق النسائم الندية، فكنت في مدى بصري أتأرجح بين زرقة المياه الدفيقة وزرقة عينيّ حبيبتي النجلاوين. وأحيانا إذ نطمئن إلى اعتدال الطقس، نقتحم ساحل البحر، فتكون لنا فيه ملاعبات ومناوشات غرامية كفعلنا في مسبحنا الخاص... هذه المرأة

الناعمة الزكية، التي في ظلها برأت وتعافيت، ولا أريد أن يمسها سوء ولو صغُر، هذه المرأة -متني وسندي- التي تثني على سهري الليلي، سأكتب ولا شك في مديحها نصا مخصوصا أتلوه ذات يوم على مسمعها الرهيف، وألتمس منها رقنه ضمن ما ترقنه من صفحاتي المتوافرة الأخرى.

وذات مرة، آثرت إطلاع زوجتي على أمر جمانة وطبيعة علاقتي بها، فأكدت لها أن الولية تنبأت بقراننا وتبلغها السلام. لم يبد عليها أي تضايق أو غيرة، بل عبرت عن الرغبة في زيارتها بمعيتي متى تيسر، فوعدتها بذلك... ثم إننا تخابرنا في شأن سعيد ورسائله ومكالماته حيث يخطرنا بنيته الزواج بالفتاة التي حضرت معه حفل زفافنا، ويحدد لذلك مهلة ستة أشهر. توافقنا على إبلاغه قبولنا واستعدادنا لمساعدته في تحقيق غايته. وكرة أخرى احمرت عينا جليستي ودمعتا تعبيرا عن سرورها بزواج ابننا المرتقب.

بعد فراغنا من وجبة الغداء، انطويت ساعة على دفئها وحنانها، وبعدها استأذنتني في استقبال إحدى صديقاتها، فذكّرتها أنها سيدة المنزل ومالكته. أما أنا فمنحت لنفسي قيلولة قبل أن أغوص في قراءة ما ظل من الكتب يترقبني.

*

بعد رحيل الطبيب أنس الساحلي للإقامة في كندا، غدا عزيز هو صديقي الأوحد شعرت بالتقصير في طلبه، فبادرت إلى مكالمته. قال إن هناك مستجدات في حياته تستوجب لقاءنا مساء الغد في الحانة المعلومة. وهنا بعد شرب كأسين، استفسرني بما دوخني:

- هل تحب ألقى مصير الراحل عدنان؟

أجبت على الفور:

- طبعا لا!

- المدينية طلعت بنت حرام... كان عليّ تطليقها حتى لا أخضع لطلباتها المستحيلة، منها تمليكها المنزل وتسريح البدوية... كلفني طلاقها التضحية ببعض المال، لكني ربحت بفضله حريتي وخلاصي. ولحسن حظي لم تخلف لي... والله ثم والله لولا هذي الحانة وهؤلاء الندمان لكنت فقدت قدرتي على مقاومة الصعاب... أحيانا كنت أشوِّش على ما بي بالرقص وحدي بين جدراني على وقع موسيقى التقنو حتى أدوخ وأغيب عما حولي... والآن هيا بنا إلى المبسط مع الصحاب الأوفياء.

استجبت لدعوته، عرفني عليهم وكانوا ثلاثة، قال لي:

- وأنت، يا يقظان، صادفت امرأة الحلال والخير، أنت

بها اليوم سعيد، هذا ما أراك فيه، يا بختك! أما أنا فأكتفي بعائشة الطيبة وبابننا ولا أطلب المزيد... تبت والله تبت.

أخذ الندامى يتقارعون بالكؤوس ولا يستثنون كأسي، وبعد هنيهات فلكأني سكرت بسكرتهم، فصحت في مسامعهم: "فشاربُ الخمرِ يصحو من سكرتهِ/ وشاربُ الحبِّ طوالَ العمرِ سكرانُ". طربوا لهذا البيت، وسألني سائل عن قائله، فقلت إنه الزير سالم المهلهل خال امرؤ القيس، وسأل آخر عن معنى الزير، قلت إنه محب النساء وطالبهن، فدعوا له جميعا بالجنة ولي بوفرة الحب ودوامه. وعلق صاحبه: على العموم، الوفرة إلى حين والدوام لله وحده. لم أعقب أو أقل إني بفضل حرمي أرتاد مدار أيامي خفيفا مؤزرا، وأمضي لحظاتها هنيئا مبشورا. وللناس في مصائرهم شعبٌ مختلفة وطرائق كثيرة.

هتفت لي كوثر باكية وأخطرتني بموت خالها في حادثة سير مروعة. لم أخبر عزيز بالأمر، فودعته وصحابه، ثم هرعت إلى بيتي ومنه مع زوجتي إلى منزل المتوفى لتقديم التعازي لزوجته وأهله. في غرفة الرجال حيث أخذت مكاني كان بعضهم يقر أن الحاج العربي، رحمه الله، مات بسبب تهور سائق شاحنة جرفته بشدة، كما جاء في محضر الشرطة. وكان الكلام بين الحضور في تكاثر حوادث السير التي تودي بالمئات من الأرواح وتخلف العديد من المعطوبين والجرحى، وأورد

بعضهم شهادات مأساوية عاينوها، واصفين طرقنا بالمجازر التي لا تعفي حتى السائقين الحذرين والحريصين أشد الحرص على احترام قانون السياقة، كما كان حال الراحل المشمول بعفو الله. وتعالت أصوات بالاستلطاف وذكرِ آيٍ من الكتاب المبين. وفي الغد حضرت مراسيم الجنازة والدفن وسط جمهور غفير؛ واستأذنتني كوثر في ملازمة زوجة المتوفى يومين أو ثلاثة، فأذنت. وفي اليوم الثالث كانت ذكرى الوفاة، حضرتها رفقة عزيز وزوجته اللذين لم يقصرا في تقديم التعازي لكوثر وأهلها. وفي الأسبوع الموالي، بدعوة ملحة من صديقي، قضيت خمسة أيام في ضيعته صحبة زوجتي، فنشأت بين هاته وعائشة والخدم ألفة وعشرة طيبة. اغتنمت روعة المناسبة فأطلعت حبيبتي على مقترحاتي السفرية لاكتشاف ما تيسر من الأرض مدائنها وجزرها، فتلقتها مبتهجة راضية.

غداة إقامتنا تلك، بلغني من أبي عليّ ماء العينين نعي السيدة جمانة، فصحت منفعلا: جمانة يا كوثر ماتت... لا بد لي من حضور جنازتها غدا، فبكت بكاء غزيرا؛ رددتُ طلبها بمرافقتي، أعددت على الفور حقيبتي وتذكرة سفري. ولما أصحبت بعد نوم مرتج ودعتها وداعا حارا وهي لا تنفك تبكي وتوصيني بالحذر والعناية بنفسي واتقاء شر الطريق.

حين حطت الطائرة في مطار أگادير، حيث ينتهي الطريق السيار، أُخبر الركاب بأن الرحلة إلى العيون ستتأخر ساعات لأسباب تقنية وفي انتظار تحسن الجو. في مقصف المحطة شربت فنجاني قهوة ميقظة، ملاحظا أني في حالة بدنية وذهنية جيدة. أنبأت كوثر بما حصل مطَمئنا، وتلقيت أدعيتها الجياشة؛ ثم إني اكتريت سيارة متمنيا بلوغ وجهتي في الوقت المناسب مع توخي أقصى درجات التحوط والاحتراز في السياقة والسرعة، عملا بنصيحتي الحبيبتين المجيدتين. لكن، وأنا على مقربة من العيون، بدت لي شاحنة ضخمة تزيغ عن ممرها وتنقض عليّ كغول فولاذي محدثة في سيارتي جعجعة مدوية، فلحظت الدم ينزف من رأسي ووجهي ويسيل على صدري... همست متألما: قادم إليك يا جمانة... أغيثيني يا كوثر... تراءت لي صور خاطفة من حياتي تنهمر علي وتتزاحم لتسقط تباعا في هاوية سحيقة... ثم أظلم نظري ولم أعد ألوي على شيء... لا شيء... لا شيء... لا... لا...

للكاتب

بالعربية:

□ *في الدراسات الفكرية والتاريخية :*

* *في نقد الحاجة إلى ماركس*، بيروت، دار التنوير، 1983.
* *معهم حيث هم* (حوارات فكرية)، بيروت، دار الفارابي (ط. 2)، 1987.
* *كتاب الجرح والحكمة*، بيروت، دار الطليعة (ط.2)، 1988.
* *التشكلات الإيديولوجية في الإسلام*، ط.2، بيروت، دار المنتخب العربي، 1990.
* *في الغمة المغربية*، طنجة، دار شراع، 1997.
* *الخلدونية في ضوء فلسفة التاريخ*، (ط.2)، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2006.
* *في معرفة الآخر*، منشورات الزمن، الرباط، 1999.
* *نقد ثقافة الحجر وبداوة الفكر*، المركز الثقافي العربي، بيروت، 2004.

* ***العرب والإسلام في مرايا الاستشراق***، دار الشروق، القاهرة، 2011.

* ***في الاسلام الثقافي***، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 2016.

□ ***الأعمال الأدبية :***

* ***مجنون الحكم***، (ط.2) دار الشروق، القاهرة، 2012.

* ***محن الفتى زين شامة***، بيروت، دار الآداب، 1993.

* ***سماسرة السراب***، المركز الثقافي العربي، بيروت/ الدار البيضاء، 1995.

* ***العلاّمة***، دار الآداب (ط.2) بيروت، 2012.

* ***فتنة الرؤوس والنسوة***، دار الآداب، بيروت، 2000.

* ***زهرة الجاهلية***، دار الآداب، بيروت، 2003.

* ***أنا المتوغل وقصص فكرية أخرى***، دار الآداب، بيروت، 2004.

* ***هذا الأندلسي!***، دار الآداب، بيروت، 2007؛ ط.2، 2011.

* ***معذبتي***، دار الشروق، القاهرة، 2010 (ط 2).

* ***امرأة أعمال***، دار الشروق، القاهرة، 2013.

* ***من ذكر وأنثى***، دار الشروق، القاهرة، 2015.

* ***الراوي والمتجردة***، الدار المصرية اليونانية، القاهرة، 2016.

□ *دواوين:*

* ***كناش إيش تقول***، الدار البيضاء، 1979./ ***ثورة الشتاء والصيف***، الرباط، 1983./ ***أبيات سكنتها وأخرى***، دار الطليعة، بيروت، 1997./ ***ديوان الانتفاض***، دار شراع، طنجة، 2000./ ***افتراعات***، دار رياض الريس، بيروت 2010./ ***الحب ذو الحرث والريحان***، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 2015.

□ ***سيناريات*** لأفلام تليفزيونية مع القناة الثانية: **أمواج البر**، 2002/ **علال القلدة**، 2003/ **علاش لا؟**، 2005/ ***ابن خلدون*** (في طور الإخراج).

بالفرنسية:

* ***De la formation idéologique en Islam***, Anthropos, Paris, 1983 ; rééd., Rabat, 2006.
* ***Au pays de nos crises. Essai sur le mal marocain***, Casablanca, 1977.
* ***Le Calife de l'épouvante***, Le serpent à plumes, Paris, 1 999.
* ***Ijtihâd, la face voilée de l'Islam***, Paris 1987, rééd., Rabat, 2006.
* ***Ibn Khaldûn, un philosophe de l'histoire***, Paris 1990, rééd., Rabat, 2006.
* ***Etre en vie et autres fragments***, Eddif-Non lieu, Casablanca-Paris, 2007.
* ***Le livre des élans***, Rabat, .2013
* ***Le roman d'Ibn Khaldûn***, CDC, Casablanca, 2017.
* ***Ma tortionnaire***, Erick Bonnier, Paris, 2017.
* ***Le désintégré*** (sous presse).

المحتويات

الإهداء 5

__ 1 __ 9

__ 2 __ 35

__ 3 __ 48

__ 4 __ 67

__ 5 __ 87

__ 6 __ 97

__ 7 __ 117

__ 8 __ 135

__ 9 __ 143

__ 10 __ 165

__ 11 __ 182

__ 12 __ 199

__ 13 __ 213

__ 14 __ 234

للكاتب 249

ماضيا، كنتُ أؤاخي الريحَ الطيبة وأحنُّ إليها متى توارت؛ كنت أطبع حركاتي ومحيّايَ بمياسمِ الخصبِ والمحبة، وأبتهج بكل الأشياء الخيِّرة التي تصيبني ويغشى عبيرها قلبي وجوارحي. نوابضي الحيوية بدت لي إذذاك في أوج وهجها والأقدارُ طيعةً لاحت لي وعني راضية. وهكذا بتُّ أحتفل بالحياة وأسعى إلى التسربلِ بعبقها وزخمها والإرتقاءِ في مدارج أنوارها المطهِّرة.

ثم من حيث لا أدري إلا بعضه، أجهز عليَّ تحولٌ سالب وتصدعٌ باطني، أرديانى من جرحى الحياة. فعاد الأنا المقلاقُ إلى النتوء، ومعه لحظات الضجرِ المميتة والأفكارِ السود. فخالج دمي، جراءَ ذلك، بردٌ قارسٌ، وتردت معنوياتي وتلاشت.

فما العمل لتفريج الكرب عني وتجويدِ الوجود. لا أيَّ وجودٍ أريد، بل الذي يمخرُ عبابَه المعنى المضيء، ويسري الدفءُ فيه والحماسة، وتعلوه أكاليلُ الإبداع والرغباتِ الجياشة؟

وأتى الجواب جوانيا كالتالي، تحملهُ ريحٌ تائهةٌ حيرى، تهبُّ قويةً تارة وخفيفةً طورا...

ISBN: 978-9954-705-32-2

المركز الثقافي للكتاب
للنشر والتوزيع

الدار البيضاء / بيروت
الدار البيضاء: 212522810406+ / بيروت: 9611747422+
markazkitab@gmail.com